رواية

«ليليان وعد الخلود»

اسم الكتاب : ليليان وعد الخلود «رواية»
تأليف : هاني محى
تصحيح لغوي : عبد الله حسين
تصميم الغلاف :حسام علام
رقم الإيداع: ٢٠٦٢٠ -٢٠١٧

ZERO ONE PICTURES
Production solutions that make sense.

زيرو وان بيكتشيرز للتوزيع - أحمد فخري - مدينة نصر - القاهرة
تليفون : 01090288777

E.mail: Zeroonepictures@outlook.com
Zeronepictures.com
website: www.zeronepictures.com

© جميعُ الحقوق محفوظة، وأى اقتباس أو إعادة طبع أو نشر فى أى صورة كانت ورقية أو الكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابى من الناشر؛ يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

«ليليان»

وعد الخلود

للمؤلف

هانى محى

محمد السحار
Mohamed El Sahhar

إهـــداء

إلى أمّي الحبيبة الراحلة..
إلى مَن علَّمتني حُبّ القراءة،
فمنحتني كنزًا لا تُضاهيه كنوز العالم.

جميع الاحداث و الشخصيات الواردة في هذه الرواية هي محض خيال المؤلف.

« ما ضرك لو أطفأ هذا العالم أضواءه كلها فى وجهك،

ما دام النور فى قلبك متوهجاً . »

جلال الدين الرومى

« ١ »

في ردهة أحد المستشفيات خرجت ممرضة شابة مِن غرفة تُحيطها باقات الزهور مِن كلّ جانب وتمتدّ لمسافة كبيرة على جانبَي الردهة، تلفتت حولها قليلًا قبل أن تتجه نحو امرأة ثلاثينية تجلس في صمت على أحد المقاعد القريبة وهي تقوم بقراءة القرآن مِن مصحف صغير:

– إنتي بنته؟

رفعت المرأة رأسها إليها وهزّتها بالإيجاب في هدوء والحزن يكسو ملامحها، استطردت الممرضة وهي تنظر في بعض الأوراق التي تحملها:

– هو عايز يشوفك قبل ما تمشي.. هو واخد حقنة مُهدِّئة دلوقتي، لمَّا الدكتور يسمح هخلِّيكي تدخليله.

– متشكرة.

انصرفت الممرضة بينما أخذت المرأة تنظر باتجاه تلك الحجرة وقد انسالت دموعها في صمت، عاودت بعدها قراءتها في مصحفها الصغير.

****

« ٢ »

لا أتبيّن جيّدًا حقيقة المكان مِن حولي لكنه يبدو نوعًا ما مكانًا مألوفًا لي، أجلس إلى طاولة وأمامي فتاة لا أعرفها، نتبادل حديثًا هادئًا، يعلو صوت الموسيقى تدريجيًا في المكان الذي أصبح مزدحمًا بأشخاص يتحرَّكون مِن حولنا دون أن أتبيَّن ملامحهم، نُقرِّر الانصراف معًا، نسير في طريق تحفّ الأشجار العالية جانبيْه وتمتلئ سماؤه بالنجوم بشكل مذهل، يتلاشى المكان والزمان فلا أرى سوى وجهها الضاحك المتألّق، تختفي من أمامي فجأة، تلفتّت حولي باحثًا عنها فلم يبد لها أثرًا.. تتسمَّر قدماي ولا أقوى على الحركة، تنتابني مشاعر غضب هائلة بسبب تلك المرأة الأخرى التي تقف أمامي.. مِن أين أتيتِ؟ وكيف تتسللين إلى حياتي هكذا دون سابق إنذار؟ أهرول مبتعدًا عنها فتلاحقني بإصرار وبرود يزيدان من حنقي عليها وعلى ظهورها المفاجئ في تلك اللحظة، أتابع بحثي عن تلك الفاتنة التي كنت أجلس معها فلا أجدها، أمد ذراعي محاولًا منع تلك التي تطاردني عن اللحاق بي فتتلاشى هي الأخرى.. ويختفي كل شيء.

أستيقظ من نومي بشكل مفاجئ، ألتقط أنفاسي المتلاحقة مدركًا أنه كان مجرد حلم، أو كابوس سخيف، أدرك أيضًا أن مشاعر الغضب التي انتابتني هناك قد صاحبتني إلى أرض الواقع.. أغمض عيني مرة أخرى وأظلّ مستلقيًا محاولًا التخلّص مِن تلك المشاعر السلبية التي جلبتها لي تلك الرؤية الكريهة والمباغتة.

أدركت أنني لن أتمكّن من النوم ثانية ففتحت عيناي محاولًا بكلّ

قوة التخلص من تلك الأضغاث اللعينة، ظللت مستلقيًا أحدِّق في سقف الغرفة المظلمة بفعل الستائر الداكنة التي تغطي نافذتها كغيرها من باقي نوافذ الشقة بأكملها، بينما تعصف برأسي آلاف الأفكار والمشاهد المتضاربة، أمدّ يدي لأجلب هاتفي المحمول من على الكومود المجاور.. تقترب الساعة من الواحدة ظهرًا، كان ما زال أمامي ساعة أخرى قبل أن يبدأ الهاتف في الصراخ بتلك النغمة الرتيبة محاولًا إيقاظي، ينتابني ضيق آخر لاستيقاظي قبل موعدي المعتاد.. أعاود التأمُّل في سقف الغرفة لبعض الوقت، أشعر بضيقي يتزايد فأقرّر نفض غبار النعاس عن رأسي ومعه تلك الذكريات البغيضة التي انهالت على رأسي دون سابق إنذار كرصاصات متتالية أطلقتها كتيبة إعدام بلا رحمة.

أعتدل وأجلس على حافة السرير، أعاود الإمساك بهاتفي لقراءة تلك الرسائل التي وردت في أثناء نومي والتي تكون غالبًا متعلقة بأمور العمل، أُجري بعض المكالمات مع «محمد» المخرج المُنفِّذ الذي يعمل معي في البرنامج الذي أقوم بإخراجه يوميًا على الهواء من الأحد حتى الخميس من كل أسبوع، ومع بعض العاملين الآخرين في البرنامج للاطمئنان بأن كل شيء يسير كما هو مُخطّط له.

أقوم بعدها لأخذ «دُش بارد» كي أمحو به آثار نومي المتأخّر الليلة الماضية، محاولًا قتل تلك الأشباح السوداء التي تتقافز داخل رأسي مِن جرّاء ذلك الحُلم السخيف الذي كان سببًا في إيقاظي، وفي إحساسي بضيق ظلّ ملازمًا لي عدة ساعات.

****

« ٣ »

يبدأ اليوم مملًا كعادة الأيام، استيقاظ يومي أتمنّى كل ليلة أن لا يأتي موعده أبدًا، تفاصيل تتكرّر بشكل روتيني ورتيب يومًا تلو الآخر يتحوّل بمرور الوقت إلى اعتياد وألفة واستسلام غير مشروط.

طقوس بسيطة أمارسها يوميًا قبل ذهابي إلى العمل دون أي تغيير، ملعقة عسل أبيض أتناولها يوميًا في الصباح، أتبعها غالبًا بأي قطعة من الفاكهة تتوافر لدى، ثمّ كوب النسكافيه الذي أحرص على تناوله في رشفات سريعة ومتعجلة في أثناء ارتداء ملابسي، والسيجارة التي تأبى أن تفارقني قبل أن تودعني عند وصولي إلى باب السيارة.

اخترْ ملفًا يحتوي على أغانٍ قديمة نوعًا ما لفريق «Bee Gees» مِن الموبايل المتصل بكاسيت السيارة، تتسلل موسيقاهم بداخلي مخلفةً حالة من البهجة والحنين إلى ماضٍ بعيد، أتخذ طريقي متجهًا إلى مدينة الإنتاج الإعلامي القريبة مِن منزلي.

« فريق غنائي تأسّس في أستراليا عام 1958 ثم انتقل إلى بريطانيا، تخطّت مبيعات الفريق 225 مليون أسطوانة مما جعله ضمن أكثر الفِرق مبيعًا في التاريخ، من أشهر أغانيه أغنية «Stayin` alive» التي ظهرت في فيلم Saturday Night Fever»

« ٤ »

تبعد المدينة عن سكني في أحد الأحياء الهادئة بمدينة ٦ أكتوبر نحو عشر دقائق، أسير بالسيارة بداخلها حتى أصل إلى استوديو القناة التي أعمل بها، مبنى ضخم يحتوي على البلاتوه الذي يقدّم مِن خلاله عدة مذيعين ومذيعات برامجهم في القناة، وإلى جواره توجد غرفة التحكّم أو «الكونترول رووم» كما نسمِّيها والتي أتولّى من داخلها إدارة البرنامج بمعاونة باقي طاقم العاملين في البرنامج، تلك الغرفة المليئة بالشاشات وأجهزة التحكّم والعرض والمونتاج والهواتف الخاصة باستقبال المكالمات على الهواء وتلك التي تصل بين الاستوديو وبين إدارة القناة.

تعجّ الغرفة بالحركة طوال مدة عرض البرامج، وفي الجانب الآخر من المبنى توجد مجموعة من الغرف الخاصة بالمذيعين والمذيعات والمخرجين، وأخرى مخصّصة للمكياج وتصفيف الشعر، بالإضافة إلى حجرة كبيرة للاجتماعات نادرًا ما تستخدم في غرضها الأساسي.

أتوجَّه عادة إلى البلاتوه مباشرة لمتابعة عمليات تغيير الديكور وتجهيز الإضاءة ومراجعة قائمة الضيوف مع طاقم الإعداد ومتابعة جدول العمل الخاص بكل فقرات الحلقة.. أتأكَّد أنّ كل شيء على ما يرام، ويبقى وصول «سمير الحناوي» مذيع البرنامج، الذي يصل عادة متأخّرًا عن موعده فيثير حالة مِن التوتر لا تنتهي إلا بعد تجهيزه للظهور أمام الكاميرات قبل موعد عرض الحلقة بلحظات، ظنًّا منه أنّ ذلك دليل على نجوميته وعظم شأنه.

أخذت أتابع بعض التقارير التي ستُذاع في أثناء الحلقة، وصل «سمير» فذهب أحد مساعدي الإخراج للإشراف على عملية تجهيزه قبل موعد بَدء الحلقة بوقت كافٍ، أستغلّ أنا تلك اللحظات للذهاب إلى السيارة وتدخين سيجارة مبتعدًا لدقائق عن أجواء الضجيج والتوتر المعتادة قبل موعد عرض الحلقة.

أشعلتُ سيجارة وجلست أدخّنها بهدوء في السيارة بعد أن أخبرت «محمد» بمكاني.. أخذت أتساءل عمّا أفعله في هذا المكان؟!

يبدو العمل في المجال الإعلامي أكثر بريقًا لَمن لا يعملون به، أتذكَّر تلك الأيام البعيدة المليئة بالآمال والطموحات البرَّاقة، فترات عملي الأولى في السينما مساعدًا في عدة أفلام، حُلمي بإخراج أعمال سينمائية عظيمة، شروعي في كتابة سيناريو لفيلم طويل حلمت به لسنوات طويلة، ثم توقّفي عن الأمر مستسلمًا لضغوط الحياة واتجاهي للعمل في إخراج البرامج، مستكينًا وراضيًا بذلك الدخل الثابت الذي يدرّه عليَّ ذلك العمل مبتعدًا عن أيّ مخاطرة حقيقية.

بمرور الوقت تحوَّل الأمر إلى عمل تقليدي كغيره، يتحتَّم عليَّ فيه أن أتعامَل مع مختلف أنواع البشر، تتبدل الانطباعات تجاه كل شخص بمرور الوقت، تسقط الأقنعة وتتجلّى الحقائق يومًا بعد الآخر فأرى حقيقة مَن حولي بلا رتوش، دائمًا ما يتكفّل الوقت بكشف حقيقة الأشخاص مهما بذلوا مِن جهد في مداراة تلك الحقيقة بابتسامات زائفة أو مجاملات كاذبة.

منحتني عزلتي الطويلة خلال الفترة الماضية القدرة على تشييد حاجز وهمي أحطت به نفسي محتفظًا بمسافة فاصلة بيني وبين الآخرين، حرصت على ارتداء ذلك القناع الصارم كسياج مكهرب يردع كلّ مَن تسوّل له نفسه الاقتراب أكثر مِن اللازم أو أكثر مما أحتمل، أصبحت أتعامَل مع الجميع بجدية وهدوء في حدود ما يتطلّبه العمل، ونادرًا ما كنت أتواجد في تلك التجمعات التي تحدث أحيانًا في أثناء أو بعد انتهاء التصوير.

كنتُ عادة أنصرف بعد انتهاء العمل مباشرة دون ارتباط أو التزام بعلاقة من أي نوع مع أي أحد، مُفضِّلًا الابتعاد عن تفاصيلهم الخاصة ومكتفيًا بالتعامل مع الظاهر منهم.

لم يكن في داخلي متسعٌ لأي شاغل جديد، كنت بالكاد أتمكّن مِن إيقاف ذلك الطنين الذي لا يتوقّف داخل رأسي في أثناء العمل، مستسلمًا له في ما عدا ذلك من أوقات.

أفقت من شرودي ونظرت في ساعة الموبايل، كانت عشر دقائق قد مرّت ويبقى مثلها على موعد الهواء، نزلت متثاقلًا من السيارة وعدت إلى الاستوديو استعدادًا لبَدء الحلقة.

****

« ٥ »

فقدت تلك الحماسة التي كانت تعتريني قديمًا قبل بَدء الهواء، أصبحت أتعامَل مع كل شيء بشكل آلي، يبدأ عرض الحلقة، أتابع أداء المذيع الذي يتقمّص دوره كممثل مسرحي بارع، فبمجرد انطفاء أضواء الاستوديو وتسليط الأضواء عليه حتى يبدأ في تقمّص شخصيته على أكمل وجه، تتغيّر نبرة صوته وتعلو ويُمارس انفعالاته المسرحية وهو ينتقد بحدّة بعض صغار المسؤولين هنا وهناك، لا يخلو الأمر أحيانًا من انتقاد وزير أو حتى مواجهته بعنف إذا عرف من بعض مصادره أن هذا الوزير أو ذاك أصبح من المغضوب عليهم أو أنه على وشك تغييره بآخر في تعديل وزاري غير مُعلَن بعدُ، يقوم بمنتهى التفاني بكل ما يتطلبه جلوسه على هذا المقعد وتقاضيه أجره الضخم مهما كانت تلك المتطلبات.

يرتدي ثياب المُعارِض برفق أحيانًا، والمؤيّد بعنف لسياسات الحكومة في أغلب الأحيان , أذكر جيّدًا أيام عملي الأولى معه، عندما رأيته للمرة الأولى منذ عامين كان كاتبًا صحفيًا لم يسبق له الوقوف أمام الكاميرات أو الظهور على الشاشات من قبل، كان يشعر بقلق وتوتر بالغين، بذلت معه جهدًا كبيرًا حتى اعتاد الجلوس أمام الكاميرات والتحدّث دون خوف، وبمجرد بَدء عرض البرنامج أستغل كل علاقاته الصحفية وغير الصحفية من أجل إحضار ضيوف بارزين يُشاركونه في حلقات البرنامج الأولى، وكذلك من أجل توفير بعض الإعلانات التي يسهل عليه كصحفي الحصول عليها من بعض الشركات التي تقوم بنشر

إعلاناتها في بعض الصحف التي يكتب فيها والتي تضمن له استمرار عمله كمذيع ناجح من وجهة نظره.

لم يكن الأمر يتعدّى في النهاية سوى مجرد نقاشات سطحية بلا معنى في برنامج لا يخدم في الحقيقة سوى مصالحه الخاصة بعلاقات يوطدها بالمسؤولين الذين يتولى استضافتهم في برنامجه، مبرزًا قوته في وسطه الصحفي بتقديمه هذا البرنامج الذي يمنحه مكانة ونجومية بين زملائه من الصحفيين الذين يستعين ببعضهم كمعدّين لبرنامجه، والذين يتعاملون معه بدورهم بصفته بطلًا خارقًا أو نصف آله.

بعد حلقات البرنامج الأولى لاحظت بوضوح ذلك التغيّر الملحوظ الذي طرأ عليه وعلى طريقة حديثه، ذلك التعالي والثقة الزائدة التي أصبح يتعامل بهما مع كل مَن حوله. ظللت أتعامل معه كما تعاملت دائمًا، بجدية وهدوء في حدود العمل، متجاهلًا تلك الهالة الخيالية التي أحاط نفسه بها، كان ذلك الأمر يُثير حفيظته، ولكنني لم أبالِ يومًا.

تنتهي الحلقة كغيرها من الحلقات ويعود الضجيج ثانية إلى «البلاتوه» و«الكونترول» استعدادًا للبرنامج التالي الذي يخرجه مخرج آخر، أقف مع «محمد» وبعض المُعدِّين لترتيب بعض التفاصيل المتعلقة بحلقة الغد، يمرّ بنا «سعيد» وهو يتحدَّث في هاتفه المحمول ويشير إلينا بيده محييًا في أثناء انصرافه، أكتفي بالردّ بإيماءة من رأسي، أمرّ في أثناء انصرافي بالعاملين في البرنامج والذين يقف معظمهم خارج الاستوديو لتدخين سيجارة أو تناول كوب من الشاي قبل بَدء العمل في البرنامج التالي، أحييهم وأذهب في طريقي.

« ٦ »

جلست في السيارة أتفقّد هاتفي الذي أجعله صامتًا وقت الحلقة، كان « مازن » اتصل بي مرتين، عاودت الاتصال به فلم يرد.

أشعلت سيجارة وجلست منتظرًا معرفة الوجهة التي سأذهب إليها، أخذت أفكّر في ما يمكن أن أفعله لعدة ساعات قبل ذهابي إلى المنزل، ليس سعيًا وراء تسلية أو متعة وإنما هرب مِن تلك الشياطين التي ستنفرد بي عابثة برأسي لو ذهبت إلى المنزل قبل نومي بساعات طويلة، تلك الأفكار القاتمة التي تهاجمني بضراوة وبلا رحمة كل ليلة تقريبًا، وإن كنت في الغالب أقابل أكثر الدعوات بالاعتذار.

ليالٍ تتكرّر تفاصيلها كما تتكرّر تفاصيل كل نهار، حياة رتيبة أشبه بحياة بندول ساعة قديمة لا يتحرّك سوى يمينًا أو يسارًا.. التغيير الوحيد الوارد حدوثه هو أن يتوقّف تمامًا عن الحركة.

تكرار استسلمت له طويلًا دون أدنى مقاومة حتى اعتدته، وأصبحت أشعر أن التغيير الوحيد الذي يمكن أن يحدث لي هو أن لا أستيقظ يومًا.. فينتهي كل شيء.

انتشلني رنين الهاتف من شرودي، كان « مازن » مرة أخرى:

– آلو

ردّ بصوته المرح كعادته:

– مساء الفل على مُخرجنا الكبير اللي مستخبّي دايمًا وحارمنا من رؤياه.

– يا بني ولا مستخبّي ولا حاجة، كان عندي هوا ولسه مخلَّص، وإنت مابيحلاش تتصل غير وقت الهوا.

– يا باشا أنا مش باتكلم على النهارده، إنت فين من أكتر من شهر، لازم أنا اللي أسأل يعني وأشدّك بره الصومعة بتاعتك؟!

– عندك حق.. في دي أنا مش هاتكلّم، بس إنت فاهم بقى.. إنت لسه يعني هتعرفني؟!

– لا يا سيدي عارفك كويس، المهم.. بكرة بعد الهوا وراك حاجة؟ تاني يوم هيبقى الجمعة ومالكش حجة.

– ناوي على إيه يا معلّم؟!

– إنت مش كنت عايز تحضر حفلة للمولوية؟ بكرة فيه حفلة الساعة ٩ في مسرح الجمهورية، نتقابل وفرصة أعرّفك على «شاهندة» اللي بقالي سنة باكلّمك عنها.

– إمم.. والله أنا كمان نفسي أشوف اللي ظبطتك الظبطة دي وممشيّاك ع العجين.

– هي كمان نفسها تشوفك من كتر ما باحكيلها عنك، بس أبوس إيدك بلاش فضايح.

ضحكت لتحذيره الذي أدركت مغزاه قبل أن أستطرد:

– ماشي يا سيدي لمَّا نشوف آخرتها معاك.

– آخرِت إيه بس يا عمّنا، هو إحنا لسه شفنا دنيا لمَّا هنروح للآخرة.

– صحيح، وإنت غلبان ولسه ما شفتش دنيا خالص، المهم.. قولي هنتقابل إمتى وفين؟

– أنا عارف إنك هتيجي بعد الهوا، يدوب توصل على ميعاد الحفلة، هتلاقيني سايبلك التذكرة باسمك على الباب.

– متشكرين يابا.. يدوم الواجب.

« فرقة إنشاد صوفي تأسّست على يد منشدها «عامر التوني» الذي يُقدّم من خلالها التراث المولوي المصري من خلال المزج بين الإنشاد والرقص الصوفي بشكل حديث»

****

« ٧ »

قرّرت الذهاب إلى المكان الوحيد الذي أتمكن فيه لمدة ساعتين من إيقاف تلك الآلة الجهنمية التي تدور داخل رأسي بلا هوادة.. كانت ملابس التدريب معدّة دائمًا في حقيبة السيارة، ذهبت إلى صالة الجيم المجاورة لمنزلي.

بدأت ممارسة تلك الرياضة منذ عدة سنوات، لم أكن أظن أني سأستمرّ طوال هذه المدة بنفس الإصرار، ولكنني فعلت.

بمرور الوقت أصبحت عادة لا أتخلّى عنها، اكتشفت أنها وسيلة مثلى لإخراج شحنات مِن الغضب المكتوم، والتنفيس عن طاقات يساعدني التخلص منها في السيطرة على رغبات تشتعل داخلي بين الحين والآخر، ولا أنكر بالطبع أنها منحتني مظهرًا قويًّا يتناقض بشدة مع سنوات عمري التي جاوزت الأربعين عامًا.

انعزلت كعادتي عمن حولي، أنهيت تدريباتي بقوة وتركيز شديدين وأنا أتصبّب عرقًا، ارتديت سترتي الرياضية ووضعت غطاء الرأس خوفًا من التعرض لأي تيار هوائي، لحظات وكنت أقف تحت الماء البارد للمرة الثانية هذا اليوم، أعددت عشاءً سريعًا يصلح لتعويض ما بذلته مِن جهد، ثم بدأت في ممارسة طقوسي الليلية المعتادة، طقوس تتكرّر كلّ ليلة وأمارسها بإخلاص وجدية كاهن بوذى عجوز في أحد معابد التبت.

أغلقت هاتفي المحمول، أعددت سيجارتين محشوتين بمخدّر الحشيش،

أخذت أستمع إلى مقطوعات من موسيقى «باخ»، والمعروفة باسم «كونشرتات براندنبورج» بينما أجلس مسترخيًا على أريكة الأنتريه الذي يحتلّ تقريبًا معظم مساحة الصالة، وتتوسطه منضدة عليها كل ما أحتاجه من سجائر، وعدة ولاعات متناثرة، وطبق زجاجي، ومطفأة السجائر، وعدة علب فارغة أستخدم أجزاءً منها ودفتر لأوراق اللف.

– «يوهان سباستيان باخ» مؤلف موسيقي ألماني وُلد عام ١٦٨٥ ورحل عام ١٧٥٠ ميلادية ويعدّ أحد عباقرة الموسيقى الكلاسيكية على مرّ التاريخ.

– تعدّ من أشهر أعمال «باخ» وعلى الرغم من ذلك فإنها لم تعزف وتنتشر إلا بعد قرن كامل من وفاته

أصبح كل شيء معدًّا من أجل الشروع في ممارسة الطقس الأخير.
أشعلت سيجارة الحشيش الأولى وتناولت أنفاسها بعمق وهدوء شديدين، يتسلل مفعول المخدر ببطء ويسري في جسدي حتى الأطراف، لكنه أبدًا لا يصل إلى تلك البقعة الداكنة البعيدة داخل عقلي.
تقفز إلى ذهني ذكريات ومشاهد خاطفة مصحوبة بخيالات ضبابية، أحاول أن أتخلّص منها سريعًا فلا أفلِح.
ها أنا قد عدت ثانية لعالمي المسكون بتلك الأشباح اللعينة الدؤوبة، تطاردني أسئلة تطرق أبواب عقلي بلا كلل، أسئلة لم ولا أرغب يومًا في معرفة إجاباتها، يكفيني من الأمر تلك الإجابات التي تسكن مخيلتي ويقيني.
تنتهي السيجارة الأولى بغتة فألحقها بعدة سجائر متتالية سعيًا لسحق تلك الأشباح اللعينة أو الاختباء منها بين سحب الدخان الكثيفة.
أعود إلى موسيقى «باخ» التي تملأ المكان مِن حولي وتملأ سكون الليل في ذلك الحي الهادئ تمامًا، أتذكَّر أحلام كنت أملكها يومًا ما، تلك الأوراق التي أهملتها منذ زمن بعيد، تلوح لي أطياف والدي الراحلين، أتمنّى عودتهما إلى الحياة ولو للحظات قليلة لألقي بكل همومي بعيدًا وأرتمي في أحضانهما الدافئة الآمنة، أشعر بحنين جارف لشقيقتي التي تعيش بعيدًا مع زوجها وأبنائها الصغار في إحدى دول الخليج.
يزداد بداخلي ذلك الفراغ الذي لم يعد يفارقني كأن شيئًا انتزع مِن داخلي إلى الأبد.

تنظّم تلك الأفكار الشيطانية صفوفها، وتعاود هجومها على رأسي مجددًا، أتمنى لو اختفى تمامًا من الوجود فلا أرى أحدًا ولا يراني أحد.
أقرّر أن الوقت حان لإشعال السيجارة الثانية في محاولة يائسة لدحر هذا الهجوم الضاري ممنيًا نفسي بانتصار أعرف أنه لن يطول.. يستمر الكرّ والفرّ في الميدان.. حتى تنتهي السيجارة فأتبعها هي الأخرى بعدة سجائر جديدة حتى أكاد أشعر بصدري يحترق.. لا أبالي، أستمر هكذا حتى توشك العلبة على الانتهاء، أمارس نوعًا من الانتحار اللا إرادي دون أن أدري، بل لعلّي أدري وأقصد تمامًا ما أفعله.
أشعر ببوادر النصر المؤقت حين يتسلل النوم إلى جفوني ببطء، يصمت كل شيء داخل عقلي بغتة، ويبدأ ذلك الطنين المصاحب لانسحاب جحافل تلك الخيالات المدحورة من ميدان المعركة.
يمكنني الآن إغماض عيني دون أفكار مؤرقة أو مزعجة، أقوم من مكاني فأشعر بدوّار عنيف ينتابني، أجلس مجددًا للحظات، آمر أوركسترا «باخ» العازفة بالتوقّف فيسود الصمت المكان.
أقوم بهدوء شديد هذه المرة وأتجه إلى غرفة نومي، وأستلقي فيزحف النوم إلى كل خلاياي، أستسلم لنعاس أتمنّى أن يستمر أيامًا طويلة، أتمنّى أحيانًا أن لا أستيقظ على الإطلاق.. وأتمنّى..

****

« ٨ »

بدأ اليوم التالي كغيره من الأيام، وجدت رسالة مفاجئة من «سمير الحناوي» يطالبني بضرورة الاتصال به، اندهشت لعدم اعتياده فعل مثل هذا الأمر من قبل، اتصلت به فأتاني صوته مفتعلًا الود:

– يا سيدي صباح الفل.. إيه لسه صاحي؟!

لم أكن قد أفقت تمامًا بعدُ فرددت بصوت لم يتخلّص بعدُ مِن آثار النعاس:

– آه.. صباح النور.

– طيب عاوز أشوفك النهارده قبل الحلقة بشوية، عامل اجتماع مع الإعداد وعاوزك تكون موجود معانا، عندي شوية ملاحظات عايزين نتكلّم فيها.

كادت تصدر منّي «شخرة» مدوّية تهزّ أرجاء المجرة، ولكنني كبحت جماح نفسي رافضًا الانصياع لرغبتي في سحق هذا الكائن اللزج الذي يظنّ أنه يمكنه ببساطة طلب مثل هذا الأمر مني كأنني واحد من أتباعه الذين يخضعون لأوامره، أو هكذا يريد أن يُثبت لَمن حوله، كان الجزء الأخير من كلماته مستفزًا بدرجة هائلة، تمسكت بهدوئي حتى النهاية:

– المُعدّين هما «التيم» بتاعك وإنت اللي جايبهم ومسؤول عن شغلهم، لو عندك ملاحظات عليهم تجتمع بيهم وتقولهم براحتك، وأعتقد إن لو فيه ملاحظات على شغلي كانت جاتلي من إدارة القناة، عمومًا قبل الهوا ممكن نقعد مع بعض وتقولي كل اللي إنت عاوزه،

أوكيه؟!
صمت قليلًا كأنه يستوعب ما قلته، أو يبحث عن طريقة جديدة للمناورة، ثم أتاني صوته باردًا:
– تمام.. أوكيه يا حاتم.
كنت أدرك جيّدًا ما يُحاول أن يفعله، كان الجميع يتعاملون معه بصفته نجمًا، ولكنني كنت أتعامل معه بحيادية تامة دون أي تملق، ودون أن أغدق عليه يوميًّا تلك العبارات والمجاملات الفارغة التي يمطره بها الجميع، كان يريد أيضًا أن يثبت للجميع أنه المسيطر على مجريات الأمور، يمكنك أن تسيطر على مَن تريد ولكنك لن تحقق ذلك معي أبدًا، لا تعنيني تلك الهالة الزائفة التي صدقت وجودها من حولك.. أعرف كيف تشعر بأنك ذو قيمة كبيرة لمجرد أنك تملك أرقام هواتف عدة مسؤولين كبار تتفاخر دائمًا بذِكر أسمائهم في أحاديثك مستمدًا أهميتك المزعومة من قربك منهم، لا يهمّني كل ذلك يا عزيزي، أعرف جيّدًا كيف أقوم بعملي دون الحاجة إلى تملق أمثالك، ولن أطلب منك يومًا أي شيء ولو كنت في أمسّ الحاجة إليه.
يكفي أنني أقوم بما لست مقتنعًا به، وأتعامل معك متغاضيًا عن كل غرورك وافتعالك وسخافاتك اليومية التي لا تنتهي.
فلتذهب إلى الجحيم أنت وكل أمثالك في هذا العالم.

****

« ٩ »

وصلت إلى الاستوديو في موعدي المعتاد قبل بَدء الهواء بنحو ساعتين، عرفت أن «سمير» لم يأتِ مبكرًا كما قال لعقد اجتماعه المزعوم، أدركت صِدق حدسي بأنني كنت المقصود من عقد ذلك الاجتماع الذي لم يكن سوى إعلان للسيطرة التامّة على الجميع، وعلى مجريات الأمور.

تابعت تفاصيل عملي المعتاد بكلّ هدوء، بدأ وصول فريق الإعداد التابع لـ«سمير»، وصل هو قبل بَدء الحلقة بنصف ساعة، ألقى التحية على الجميع فرددت عليه ببساطة كأن شيئًا لم يكن، طلبت من «محمد» إرسال أحد المساعدين لمتابعة تجهيزه مع الكوافير والماكيير، ثم دخلت إلى البلاتوه لمتابعة تجهيزات اللحظات الأخيرة في الديكور والإضاءة، يندهش مَن حولي أحيانًا لإصراري على متابعة تلك الأمور بنفسي، لكن هكذا اعتدت أن أفعل.

حضر «سمير» بعد أن أصبح جاهزًا لتقديم الحلقة، أدركت وصوله من تلك الجلبة المعتادة التي يُحدثها وهو يُعطي تعليماته لطاقم المُعدّين وهم يسيرون حوله في اضطراب واحترام مفتعلين، جلس على كرسيه فظهر أمامي على الشاشات، لم ينسَ بالطبع ذِكر أسماء عدة مسؤولين مشددًا على المُعدّين بضرورة الاتصال بهم لعمل مداخلات في أثناء الحلقة، عادة لا يرد أي منهم فيقوم المُعدّون بالاتصال بأشخاص آخرين يُلقّنونهم وجهات النظر التي يريدها منهم «الأستاذ»، فينصاعون

ويقومون بدورهم على أكمل وجه، أغلبهم مستعدون لقول أي شيء طالما أن اسمهم وصورتهم ستظهر على تلك الشاشة السحرية التي يجلس أمامها ملايين المشاهدين.

راجعت بعض التفاصيل الأخيرة مع «محمد»، وتحدّثت مع المُصوّرين الموجودين في البلاتوه من خلال السماعات الموضوعة على رؤوسهم، الضجيج والتوتر المعتادان من الجميع، اقتربت من المايك الموضوع أمامي، جلجل صوتي قويًا مُعلنًا قُرب بَدء الهواء مع اقتراب تتر بداية الحلقة من نهايته:

– نِهْدَا كلنا.. ستاندباي.. ١٥ ثانية ع الهوا.. ٥، ٤، ٣، ٢، هواااا.

****

« ١٠ »

اتخذت طريقي للقاء « مازن » بعد أن اتصلت به للتأكد من عدم إلغاء الموعد المتفق عليه.

كان « مازن » يصغرني بأكثر من ١٠ سنوات، درس في كلية التجارة، ثم استهواه مجال المونتاج فحصل على عدة كورسات حتى تمكّن من العمل كمونتير في إحدى القنوات التي كنت أعمل بها، جمع بيننا العمل وشغفنا المشترك بالقراءة والسينما والموسيقى، أحببت طيبة قلبه وشهامته وجرأته في التعبير عن أحلام جيله وطموحاتهم المستمرة في عالم وحياة أفضل.

كان يعيش مستقلًا عن أسرته التي لم تتمكّن مِن تفهم طبيعة عمله الذي كان يفرض عليه أحيانًا العمل طوال الليل أو التغيّب عن المنزل لعدة أيام، اضطر للاستقلال عنهم، ولكن صلته بهم ظلت قوية دائمًا، على الرغم مِن تلك الهجمات التي يشنّها عليه والداه من فترة لأخرى، فوالده رغم مرور السنوات لم يقتنع أبدًا بطبيعة عمله، وظلّ يلحّ عليه في قبول أي وظيفة ثابتة من تلك الوظائف التي يأتي له بها من حين لآخر، بينما لم تكفّ والدته طوال الوقت عن الإلحاح عليه للزواج من أي مِن بنات الأقارب أو المعارف اللاتي ترشحهن له طوال الوقت، متعللة بأنها تريد رؤية أبنائه خاصة أنه الابن الأكبر والوحيد وتليه ثلاث شقيقات لم أره يتوانى يومًا عن محاولة إسعادهن مهما كلّفه الأمر.

بعد فترة تركت العمل في تلك القناة، وتنقّل هو أيضًا بين أكثر من

عمل، ولكن صداقتنا لم تتوقّف يومًا.
لطالما جمعتنا شقته في سهرات طويلة وحيدين أو بصحبة أصدقاء آخرين، نتناقش في كل شيء في الحياة.. في السياسة، في الأدب، في الدين، في التاريخ، في الموسيقى.. ليالٍ عديدة قضيناها نشاهد أفلامًا حديثة أو قديمة، ونتناقش في كل تفاصيلها، أو نتحدّث عن كتاب جديد فيطرح كلّ منّا آراءه فيه وفي الأفكار التي طرحها المؤلف، جلسات لم تخلُ بالطبع أحيانًا أو دائمًا مِن تدخين الحشيش كبداية نبدأ بعدها في مشاهدة هذا الفيلم أو ذاك، فنستغرق تمامًا في تفاصيله كأننا نعيش داخل أحداثه.
حاول كثيرًا مساندتي خلال الفترة الماضية، ولكنني لم أستجِب لتلك المحاولات مُفضّلًا الانعزال عن كل مَن حولي دون أن يتمكّن أحد من اختراق تلك الأسوار التي أحطت نفسي بها، ورغم ذلك ظللت على اتصال دائم به، كنا نلتقي من فترة لأخرى في شقته أو في أي مكان آخر أملًا في صحبة تنسيني لبعض الوقت كل تلك الأفكار التي تحاصرني، والتي لا يمكنني البوح بها لأحد، ولكنها كانت لقاءات متباعدة تتحكم فيها الظروف، وحالتي النفسية بالطبع.
لم يتفهم تمامًا هو أو غيره سبب ذلك التحول الذي أصابني منذ فترة طويلة، أو سبب تلك العزلة التي فرضتها على نفسي طوال الوقت، ولكنه احترم رغبتي في عدم الإفصاح عن أي شيء.
التقى بـ»شاهندة» منذ نحو عام، عندما كانت تقوم بعمل «شو ريل» عن رسوماتها لتقديمها إلى أحد المعارض، لم ينجح بسهولة في مجرد

الحديث معها بعد ذلك بأساليبه المعتادة، عرف أنها مختلفة تمامًا، أدرك أنها ليست ككل مَن يعرفهن، كانت فريدة في شخصيتها، تمتلك موهبة وحسًّا فنيًّا أبهراه، ويبدو أنه أحبّها بالفعل لأنه توقّف منذ ذلك الحين عن تلك العلاقات العابرة التي كان يدخلها، ويخرج منها سريعًا دون أن يستمر منها شيء، فلم تكن هي لتقبل بعلاقات يخفيها عنها، كما أخبرته بوضوح منذ البداية، ولم يكن هو مستعدًا أن يخسرها لأي سبب كان.

حدَّثني كثيرًا عن إعجابه بثقافتها، و «دماغها» على حسب تعبيره، وأفكارها القريبة من أفكاره، كان سعيدًا بعلاقته بها، وبوجودها في حياته، وكنت سعيدًا من أجله للغاية.

لم أتخيَّل مرور عام منذ حدّثني عنها للمرة الأولى بهذه السرعة، يمرّ الزمن بسرعة خاطفة رغم ما يبدو لنا مِن بطء أيامه وتثاقلها.

****

« ١١ »

وصلت إلى مسرح الجمهورية في نحو التاسعة والربع، وجدت تذكرة باسمي على بوابة الدخول، بمجرد دخولي أدركت أن الحفل لم يبدأ بعدُ.

كانت الساحة الداخلية ممتلئة بجمهور الحفل، أسر كاملة، ومجموعات من الشباب والفتيات هنا وهناك، كانت محاولة البحث عن أحدهم وسط هذا الزحام بمثابة إضاعة للوقت، اتصلت بـ «مازن» لأسأله عن مكانه، أخبرني أنه في الكافتيريا الموجودة في ممرّ ضيق في نهاية الساحة الداخلية، اتجهت إلى حيث أخبرني فوجدته يجلس على منضدة صغيرة على يسار الممر الضيق المزدحم ومعه فتاتان.

قام مهللًا لرؤيتي مثيرًا زوبعته المرحة المعتادة:

– باشاا!.. حبيب قلبي.. أخيرًا شفتك.

– أخيرًا إيه.. همّ تلات أربع أسابيع يا ابني.

سلَّم عليَّ بحرارة واحتضنني بودّ، ثم التفت للفتاتين الجالستين في هدوء:

– أعرفكم على صاحبي وأخويا الكبير.. أستاذ «حاتم» المُخرِج.

التفت لإحداهما مستطردًا:

– حكيتلك عنه كتيير.

نظر لي وهو يشير إليها:

– «شاهندة» اللي بقالي سنة باحكيلك عنها برضه.. مهندسة ديكور.. ورسَّامة جامدة جدًّا.

صافحتها مبتسمًا بترحاب:

– هاي «شاهندة».. إزيك؟ مِن زمان والله نِفسي أشوفك.. بس ظروف الشغل بقى.

ردّت بابتسامة واسعة وهي تُصافحني بحرارة:

– إزيك يا «حاتم» عامل إيه وأنا كمان والله.

أشار «مازن» إلى الفتاة الأخرى:

– ودِي يا سيدي أستاذة «ليليان».. صاحبة «شاهي» من أيام المدرسة.. مُضيفة جويّة.. وعاملة زيك كده ما بتظهرش غير في المناسبات.

صافحتها وتبادلنا بعض عبارات الترحيب الباسمة.

كانوا جميعًا يُدخنون السجائر مما فتح شهيتي لتدخين واحدة، أشعلت واحدة بمجرّد جلوسي، تبادلنا عبارات سريعة عن العرض.. عرفت أنني الوحيد وسطهم الذي يحضر العرض للمرة الأولى، قبل أن أصل لمنتصف السيجارة أعلن المسرح عن بَدء العرض فقمنا متخذين سبيلنا وسط الزحام للدخول إلى قاعة المسرح التي كادت تمتلئ عن آخرها.

جلسْتُ وبجواري «ليليان» ثمّ «شاهندة»، وعلى الطرف الآخر مِن مجموعتنا جلس «مازن»، باغتني عطرها الفخم مدغدغًا حواسي، شعرتُ بنشوة مُبهمة لم تبدُ مألوفة لي، كأنني أصبحت فجأة داخل حديقة خيالية تملؤها أزهار مسحورة لم يعرفها البشر مِن قبل.. ما هذا العطر؟!!

أمسكت هاتفي أعبث به هربًا مِن محاولة فتح حديث قد يبدو بلا معنى.. تحدّثت هي موجّهة حديثها إليَّ:

– على فكرة أنا حضرتلهم كتير، يجنّنوا.. لو عرضوا في أي حتة في العالم هيكسّروا الدنيا.

تركت هاتفي ونظرت إليها:

– مع الأسف عندنا مواهب كتير أوي تستاهل وتقدر تحقق ده.. بس إحنا ما بنعرفش قيمة اللي عندنا ولا بنعرف نستفيد بيه.

هزّت رأسها موافقة وفي نفس اللحظة رنّ هاتفها المحمول، أخرجَتْه مِن حقيبتها:

– آسفة.. معلش هستأذنك أرد.. هززت رأسي بالإيجاب:

– أكيد طبعًا.. اتفضلي.

تباعد صوتها وعدت بحواسي إلى ذلك العالم المسحور الذي يفتح عطرها بواباته من حولي، انشغلت للحظات بعد مكالمتها بحديث هامس مع «شاهندة»، أظلم المسرح استعدادًا لبَدء العرض، شعرت بذلك الترقّب وتلك الإثارة الطفولية التي تنتابني كلما حضرت عرضًا فنيًا للمرة الأولى، تركزت كل حواسي على خشبة المسرح.

بدأ دخول الفرقة، وصفّق الحاضرون بشدّة عند دخول المُنشد الذي عرفت أن اسمه «عامر التوني»، بدأ العرض وما هي إلا لحظات حتى وجدتني مستغرقًا تمامًا في تلك الألحان والأناشيد الصوفية البديعة المصحوبة بلوحات استعراضية يُؤدّيها أفراد الفِرقة من راقصي التنورة، كان ما أشاهده أمامي يُمثّل مزيجًا بديعًا وممتعًا من الفنون يستحقّ بكلّ

جدارة أن يصل للعالم بأكمله.
حلقت في سماوات وآفاق بعيدة للغاية، كنت مأخوذًا تمامًا بما يحدث أمامي، سمت روحي فوق آفاق العالم المادي فتناسيت كل ما حولي، أنشودة تلو الأخرى وأنا أزداد انغماسًا في تلك المعاني الرائعة والموسيقى العذبة والاستعراضات التي تضفي على المسرح بأكمله عبقًا صوفيًا مبهجًا للنفس.
كان الجمهور يُصفّق بحرارة عقب كل أغنية، بينما كنت أترقّب أنا ما سيلي مِن أغنيات أخرى في فضول ونهم بالغين.
انتهى الجزء الأول مِن العرض فخرجنا لتدخين سيجارة سريعة قبل العودة للمسرح.
وقفنا جميعًا منهمكين في إشعال سجائرنا، التفت «مازن» لي مبتسمًا بثقة:
– إيه رأيك؟! جامدين.
هززت رأسي موافقًا وأنا أشعر أن تلك النغمات الساحرة لا تزال يتردّد صداها في رأسي:
– تحفة.. «ليليان» كان عندها حق.. مستواهم عالمي.. بجد.
غمزت «ليليان» بعينها وهي تهزّ رأسها في شقاوة:
– أي خدمة.
أطفأت «شاهندة» سيجارتها في منتصفها وهمست بشيء ما في أذن «ليليان»، وذهبتا إلى دورة المياه.
كانت «شاهندة» ذات ملامح شرقية جذّابة، ببشرتها الخمرية، وعينيها الواسعتين البنيتين، وشعرها الأسود المجعّد القصير، كانت طويلة القامة

نوعًا ما وذات جسد رشيق.

أمّا «ليليان» فكانت متوسطة الطول، ذات بشرة بيضاء وشعر طويل مصبوغ بلون كستنائي أنيق، منحنيات جسدها دقيقة ومتناسقة وتحمل علامة «خطر» واضحة، كانت شفتاها مكتنزتيْن قليلًا، وتضع عدسات ملوّنة تجعل ملامحها أقرب لفتاة أوروبية.. كانت تسير برشاقة عارضة أزياء محترفة.

نظر لي «مازن» بطرف عينه وهو ينفث دخان السيجارة، ثم ابتسم بخبث متسائلًا:

– إيه رأيك يا معلّم؟!

أدركت مغزى سؤاله، نظرت له بدهشة مصطنعة:

– في إيه؟!

ردّ بينما لم تُفارق شفتيه ابتسامته الخبيثة:

– في «ليليان».

– زي الفل يا سيدي.. عايز إيه؟!

– يعني هكون عايز إيه! عايز مصلحتك.

أخذت نَفَسًا عميقًا من السيجارة ونفثته في الهواء بهدوء، نظرت له بجدية:

– يا بني آدم افهم، أنا مش مستعد أدخل في أي علاقة مع أي حد، إنت عارف كويس إني قافل من القصص دي، فبطّل زن بقى.

– لحد إمتى يعني هتفضل قافل؟!

– لحد ما أبقى مش قافل يا «مازن».. ماعرفش، وبعدين إنت متخيِّل

إني لّما أعرف واحدة، هتكون ..... هي عندها كام سنة أساسًا؟

– عندها ٣٠ سنة ومُطلَّقة وعايشة لوحدها وإنت نفس الوضع، وعلى فكرة بنت كويسة جدًّا، يبقى إيه المشكلة؟!

– إممم.. ٣٠ سنة.. يعني أصغر مني بـ١٤ سنة.. إنت اتجننت يا «مازن»؟!

– إنت لحد إمتى هتفضل تحسبها كده؟! إنت شكلك ما يدّيش أكتر من ٣٥ سنة، وبعدين يا عم هو أنا قلتلك اتجوّزها بكرة الصبح! يا سيدي اتكلموا، اتصاحبوا، اخرجوا، أي حاجة هتبقى أحسن من السجن اللي إنت معيِّش نفسك فيه ده، هتخسر إيه؟!

– هي بالشكل يا «مازن»؟! وبعدين أنا كنت اشتكيت لك من سجن ولا مِن زفت، إنت ليه محسسني إن إحنا أول مرة نتكلّم في الموضوع ده.. ريَّح بقى واكتم قبل ما ييجوا ويسمعوك وإنت بتلعب دور الخاطبة ده.

هزّ رأسه يائسًا:

– مافيش فايدة في دماغك.

نفثت آخر أنفاس السيجارة ووضعتها في المطفأة المجاورة لنا.

لا أحد يعلم ما الذي يدور في دماغي يا «مازن».. لا أحد يعلم.

أفقت من شرودي القصير على صوت الفتاتين تدعياننا للدخول، التفت له مبتسمًا وربت على كتفه وأنا أدفعه للتحرّك والعودة إلى مقاعدنا.

****

« ١٢ »

انتهى الحفل بأكثر اللوحات الاستعراضية لراقصي التنورة إبهارًا، ولم يكن الجزء الثاني مِن الحفل أقلّ روعة مِن نصفه الأول، وقفت مصفّقًا بحرارة وحماس شديدين، بينما قام أفراد الفِرقة بتحية الجمهور، خرجنا جميعًا ووقفنا أمام باب المسرح في الساحة الداخلية حتى يهدأ زحام الخارجين من المسرح إلى الشارع، انشغلت «ليليان» و «شاهندة» بتفقّد هاتفيْهما، بينما أشعل «مازن» سيجارة وأعطاني واحدة، أشعلها لي، شددت أول نَفَس منها بعُمق: – مش عارف أقولك إيه؟ متشكر بجد ع العزومة الجامدة دي.. الفرقة دي اكتشاف.

– يا باشا ما تقولش كده.. وافق اشوفك انت بس كل يوم وانا مستعد اعزمك يا سيدى.

ابتسمت لمجاملته:

– ماشى يا عم «مازن»، انت اللي بتورط نفسك.

ربت بيده على صدره وهو يتحدَّث بثقة مازحًا:

– رقبتي يا كبير.

التفت للفتاتين اللتين انشغلتا بكتابة بعض الرسائل على هاتفيْهما معلنًا ضجره:

– باقولكم إيه.. سيبكم مِن اللي بتعملوه ده شوية.. الساعة لسه

ماجاتش ١٢، أنا مش هاروَّح دلوقتي.. تعالوا نطلع على «لابوديجا» نقعد هناك شوية.

تردّدت قليلًا في الموافقة، ورغبت في الاعتذار، لكنني شعرت أنه لن يكون مِن اللائق أن آتي لحضور العرض ثم أنصرف هكذا، في النهاية لم يكن لديّ شيء أفعله، لم يكن ليضيرني قضاء بعض الوقت معهم قبل العودة وحدي إلى ذلك العالم الساكن سكون الموت.

ركبت «ليليان» معي السيارة وتبادلنا حديثًا سريعًا بشأن العرض في تلك الدقائق القليلة التي استغرقها الوصول إلى ضاحية الزمالك القريبة من وسط البلد، كان الأمر مرهقًا بحقّ وأنا أحاول تجاهل آثار ذلك العطر الساحر الذي ملأ صدري وسيطر على حواسي بشكل كبير.

لا أنكر أن صُحبتها كانت لطيفة للغاية، لكنّي كنت أعرف أنّني سأعود ببساطة لأقبع وحيدًا خلف تلك الأسوار الحصينة، إذ لا أرهق أحدًا ولا يُؤذيني أحد.

****

« ١٣ »

وصلنا إلى المكان الموجود في إحدى عمارات منطقة الزمالك، كان المكان عبارة عن شقة واسعة للغاية في أحد تلك المباني القديمة ذات الطراز الأنيق الذي يُميّز تلك المنطقة، توزّعت المناضد في مختلف الأرجاء.. يتميّز المكان بإضاءته الخافتة نوعًا ما، وموسيقاه الهادئة، كان «مازن» يعرف أحد هؤلاء الحرَّاس أصحاب الأجساد الضخمة والمظهر الشرس الذين يقفون على البوابة، مما سهل لنا الدخول دون حجز مسبق في تلك الليلة المزدحمة عادة.

جلسنا على منضدة في أحد أركان المكان الهادئة، جلس «مازن» بجواري، وأمامي جلست «ليليان»، وبجوارها «شاهندة».

لم أطلب سوى زجاجة جعة، بينما طلب كلّ منهم بعض كؤوس الكوكتيلات، كان روّاد المكان مزيجًا مِن الأجانب وبعض شباب الفنانين، ومجموعات مِن الرجال والنساء يتسمون بالأناقة دون تكلّف.

تحدّثنا عن أمور كثيرة، تناقشنا في بعض الأفلام السينمائية الجديدة، وبعض الكتب التي قرأها بعضنا مؤخرًا، وحكت لنا «ليليان» عن رحلتها الأخيرة إلى شرق آسيا، ومعاناتها هي وزملاؤها من أجل العثور على طعام يستطيعون تناوله في أثناء وجودهم هناك دون عناء، بعد فترة قام «مازن» و «شاهندة» لإلقاء التحية على أصدقاء لهما، طلبت «ليليان» كأسها الثانية، للحظات بدت لي جلستنا مألوفة، كأنني عشت ذلك الموقف من قبل.. تذكّرت ذلك الحُلم الذي كنت أجلس فيه مع فتاة لا

أعرفها.. شردت قليلًا دون أن أدري.

بدأت هي الحديث للمرة الثانية هذه الليلة:

– بِتِخْرِج إيه دلوقتي؟

كانت تتحدَّث معي ببساطة وثقة كأنها تعرفني منذ زمن طويل، تأمّلت ملامحها الجميلة وأنا أجيبها:

– عندي برنامج باعمله، وساعات برامج مُسجّلة بتتعرض بعد تصويرها يعني.

– وليه مش بتشتغل سينما أو تلفزيون؟

– الإنتاج دلوقتي قليل أوي، أغلبها أفلام منحوتة من أفلام أجنبي، تجيب قرشين، وشكرًا، ماحدش عايز يتعِب نفسه، والموضوع محتاج علاقات برضه.. مش سهل، ابتديت زمان كتابة سيناريو بس ما كملتوش.

نظرت لي بتمعن كأنها تُحاول قراءة ما بداخلي:

– ليه؟

نظرت بعيداً وأنا أحاول تذكّر إجابة سؤالها: ليه؟!

– زي ما قلتلك، الموضوع محتاج لعلاقات، وفي الآخر إنتي وحظك، الموضوع يطلع لطيف ويلاقي حد يتحمّس له، أو يترمي في درج مكتب ويتنسي.

– وهتعرف إزاي مِن غير ما تكمّله.. هتخسر إيه؟

لم أكن أملك إجابة واضحة، فحتى الآن لا أعرف سببًا لعدم استكمال ذلك السيناريو الذي بدأته منذ سنوات بعيدة، ربما يفتر الحماس كلما

ابتعد الإنسان عن حُلمه أو أجل تحقيقه، ربما لا أستطيع بالفعل إكماله، أو ربما لم تعد لديّ رغبة في فعل أي شيء ببساطة.

تناولت رشفة مِن الزجاجة التي ما زالت أمامي، نظرت إليها وهي تشعل سيجارة، أشعلتها ثم أكملت:

– إنت بتشرب؟

– لا.. قليل أوي.

– بس بتشرب سجاير كتير.

اومأت برأسي موافقًا:

– ده حقيقي.. بس...

عاد «مازن» ومعه «شاهندة» لجلستهما معنا فتوقّفنا عن الحديث، انشغلت الفتاتان في حديث جانبي، بينما اقترب مني «مازن» مُتحّدثًا بجدية:

– باقولك يا ريس.. فيه حوار شغل، وأنا رشحتك للناس اللي كلّموني، وأنا اللي همنتج، ٣ أيام وفيهم قرشين حلوين، قلت إيه؟

– ما إنت عارف إن عندي شغل هوا، ماعرفش هعرف أظبطها ولا لأ.

– الموضوع هيبقى «ويك إند» ومعاه الحد، يعني مش هتسيب شغلك غير يوم واحد بس، وهنبقى مظبطين شغلنا من هنا، هتجيلي الماتيريال، هاشتغل ومعايا حد من المساعدين بتوعك، وتيجي إنت ع التقفيل، إحنا فاهمين دماغ بعض وهتبقى شغلانة سهلة.

– هشوف وأرد عليك، عرّفني التفاصيل وإمتى بالظبط ونشوف.

– أمان يا كبير.

بدأ المكان يزدحم بروّاده، دعتنا «شاهندة» لأول معرض ستُشارك فيه بعد أسبوع مِن الآن ببعض لوحاتها مع مجموعة أخرى من الفنانين الشبان، أصرّت على أن أحضر المعرض، فوعدتها بذلك، جلسنا بعض الوقت ثمّ قررنا الانصراف، طلب «مازن» منّي توصيل «ليليان» إلى منزلها في ضاحية الدقي في طريقي للمنزل، فوافقت مُرحبًا، وانصرف هو لتوصيل «شاهندة» إلى منزلها في ضاحية مصر الجديدة.

****

« ١٤ »

في السيارة هممت بتشغيل بعض الأغاني من الموبايل، فاستأذنتني في تشغيل بعض الأغاني مِن هاتفها، فلم أمانع:

– بتسمع «سعاد ماسي»؟

– مين؟

– إمم.. تبقى ما تعرفهاش.. مغنيّة جزائرية.. اسمعها وقوللي رأيك.

بدأنا في التحرّك وكانت «سعاد» تُغنّي أغنية بعنوان «غير إنت»، كانت الموسيقى رائعة وصوتها أكثر روعة.. أدهشني جمال الصوت:

– واضح إني مركون بقالي كتير أوي.

ابتسمت وهزّت رأسها نفيًا لما قلته:

– مش للدرجة دي.. فيه ناس كتير ماتعرفهاش على فكرة.

واصلت الاستماع إلى الأغنية التي لم أفهم مِن كلماتها الكثير، ولكن لحنها الشجي وصوت المغنية العذب بديا لي كأنّهما من عالم آخر.. شعرت أنني يمكن أن أعيد الاستماع إليها عشرات المرات دون ملل.

أشعلت سيجارة وقدّمت لها واحدة، استغرقنا في الاستماع لتلك الأغنية بعد أن طلبت منها تكرارها محاولًا استيعاب بعض الكلمات التي فسّرتها هي لي.

مطربة وعازفة جيتار وكاتبة أغانٍ جزائرية تقيم في فرنسا وتمزج في أغانيها بين اللهجة الجزائرية والأمازيغية واللغة الفرنسية أحيانًا.

– ممكن نلف شوية؟ عاوزة أشم هوا.. لو مش هيضايقك طبعًا.
قالتها بهدوء مسكون بدلال أنثوي مستتر.
– أكيد مش هيضايقني.
كنت غارقًا تحت تأثير ذلك الصوت الساحر، ها أنا للمرة الثانية في ذات الليلة أتعرّف على عمل فني يصيبني بالدهشة، هل غبت طويلًا عن العالم لهذه الدرجة؟ أم إنها ببساطة تصطحبني إلى عالم لم أكُن لأعرفه إلا بمساعدتها؟!
كان الصوت يحمل كل معاني الحزن والشجن والكبرياء في وقت واحد.
كنّا نسير في شوارع ضاحية المهندسين عندما أخذت تعبث بحقيبتها، ثم وضعتها جانبًا قبل أن تباغتني بسؤال غير متوقّع:
– إنت بتشرب «هاش».. صح؟!
نظرت لها في دهشة، وأجبرتني عفويتها على الإجابة ببساطة:
– صح.. إشمعني؟!
كانت تُمسك في يدها أنبوبًا بلاستيكيًّا رفيعًا، أخرجت منه سيجارة طويلة ملفوفة بإتقان، وسألتني:
– عندك مانع لو شربنا في العربية؟!
لوحت به بين أصابعها وهي تضحك:
– أمستردام بتمسّي.
مرة أخرى أخذتني بساطتها في التعامل معي كأنها تعرفني منذ سنوات طويلة.. شعرت بالانجذاب لجنونها فخضعت له دون أي تردد.
كانت أسواري تتآكل أمامها بسرعة تُنبئ بالخطر، شغلني هذا الخاطر للحظات، لكنه لم يردعني.

– ولّعيه..

قلتها باقتضاب قاضيًا على أي تردد في داخلي.

تبادلنا تدخين السيجارة حتى نهايتها، بينما تشاركنا «سعاد ماسي» جولتنا بأغانيها الساحرة وصوتها المذهل، كانت السيجارة هادئة ونقية تمامًا بشكل جعلني أدرك مدى سوء تلك الأنواع التي نشتريها في مصر، ظللنا نسير بالسيارة لبعض الوقت، لاحظت أنها شاردة نوعًا ما، كانت تنظر في الفراغ من النافذة المجاورة لها وقد اكتست ملامحها بلمسة من الحزن الهادئ، احترمت صمتها وحافظت على هدوئي.. في حضرة هذا الجمال.. يجب أن يصمت العالم بأكمله.

انتبهت مِن شرودها والتفتت لي معتذرة بخجل حقيقي:

– سوري.. سرحت شوية.. آسفة.

– آسفة على إيه! الموسيقى، والصوت، والسيجارة دي يخلو أي بني آدم يسرح.

نظرت لي كأنها ستقول شيئًا، ولكنها صمتت وأدارت رأسها نحو النافذة مجددًا.

مررنا بجوار أحد المحال الشهيرة بساندويتشات الشاورما.. شعرت بجوع مفاجئ:

– مش جعانة؟

نظرت لي وهي ترفع حاجبيها كأنها تُوشك أن تتخذ قرارًا مصيريًّا:

– هاموت مِن الجوع والله العظيم.

وقفنا بالسيارة أمام المحل وانهمك كلّ منّا في قراءة «المنيو» الذي جاءنا به أحد العاملين في المكان، طلبنا عدة ساندويتشات شاورما، هاجمتنا نوبة ضحك عندما بدت دهشة الرجل مِن عدد الساندويتشات التي طلبناها، حاولنا التماسك عندما أتى بما طلبناه، وهو يقول بلهجة ذات مغزى:

– ألف هنا يا باشا.

تناولنا ما طلبناه بشراهة، بينما كانت هي تسخر مما تفعله عندما تشعر بالجوع ليلًا:

– ساعات باجوع كده بالليل وأقعد أضرب لحد ما يطلعلي كرش صغير، أقعد تاني يوم أبصله في المراية وأنا عمّالة أضحك على منظري، وأقعد يومين ماكلش لحد ما يختفي.

أخذت تضحك ببراءة طفولية انتقلت عدواها إليّ، لم ألحظ أيًّا مما تقوله عن نفسها بالطبع، بل كنت أشعر بالدهشة لوجود تلك المرأة الفاتنة التي لا أكاد أعرفها بجواري.. ندخّن معًا، نتناول الطعام، ونضحك بهذه الطريقة، ونحن لم نرَ بعضنا البعض سوى مِن سويعات قليلة.

كانت بهجتها وحيويتها اللتان لم يقطعهما سوى ذلك الشرود القصير تقضيان على تساؤلات عديدة قفزت إلى ذهني مؤجّلة إيّاها لوقت آخر. كانت الساعة تقترب من الثالثة صباحًا، كانت الشوارع هدأت تمامًا، ولم يستغرق الطريق لمنزلها في أحد الشوارع الجانبية الهادئة بضاحية الدقي القريبة سوى خمس دقائق تقريبًا.

نظرت لها مبتسمًا فمدّت يدها لمصافحتي:

– ميرسى بجد على الوقت ده، وعلى الساندويتشات.. هنتقابل تاني.

– أنا اللي متشكّر ليكي.. أكيد هنتقابل تاني إن شاء الله، هاشوفك أكيد في معرض «شاهندة».

– إمم.. أكيد إن شاء الله.. إزاي بقى؟

لم أفهم ما تعنيه، لكنها أمسكت بهاتفي وطلبت رقمًا ما، رنّ هاتفها ثم صمت سريعًا.

فهمت ما كانت تعنيه، وما فعلته، لم تنتظر مني أي رد فعل، مدت يدها وصافحتني ثانية، وبدا للمرة الثانية أنها ستقول شيئًا ما وهي تنظر إليّ:

– تصبح على خير.. خلّي بالك مِن نفسك.

– وإنتي من أهله.. وإنتي كمان.

نزلت من السيارة تاركة خلفها أثرًا مِن عطرها المُذهل، واتجهت إلى مدخل العمارة التي تسكن بها.

انصرفت بعد أن أشعلت سيجارة لحقت بها أخريات بشكل متواصل طوال الطريق شبه الخالي إلى منزلي.

كنت أشعر بذهول مما حدث طوال تلك الليلة التي فاجأتني بأحداثها، لم يكن جمال «ليليان» وفتنتها هما ما يُسيطران على تفكيري، بل كانت حيويتها وبساطتها وتصرفاتها التلقائية والجريئة هي ما طغى على

تلك الليلة بالكامل، مما جعلني أعجز أحيانًا عن إبداء أي رد فعل أكثر من مرة.

كنت أشعر برغبة في معرفة المزيد عن حياتها، تساءلت عن سبب كون امرأة بهذا الجمال، والفتنة، وخفّة الظل وحيدة دون رجل في حياتها، لابد أنه توجد أشياء كثيرة عنها لا أعرفها، تمامًا كما لا تعرف هي الكثير عني.

كانت روحي أرهقتها الوحدة والإنهاك، لم أملك أي مقاومة حقيقية، حتى حذري القديم بدا أقلّ قوة وصمودًا.

كل ما أعرفه أنني استسلمت لها تمامًا، كنت بحاجة إلى تدبّر الأمر جيّدًا كي لا يحدث ما لا تُحمد عقباه، ولكنني لن أستبق الأحداث، فلتبقَ تلك الليلة بروعتها حاضرة في ذهني ولو قليلًا.

****

« ١٥ »

شعرت في تلك الليلة بنشوة غريبة وغير معتادة.. لا أعرف إن كان مصدرها ذلك العرض الذي لا تزال أنغامه تتردد بداخلي، أم ذلك الصوت الساحر الذي سمعته في ذات الليلة أيضًا.

ربما تلك السيجارة التي تناوبنا تدخينها معًا، أو تلك المرأة التي التقيتها دون أي سابق إنذار.

ربما كانت كلّ تلك الأشياء مجتمعة لكونها أحداثًا كثيرة تحدث في ليلة واحدة من حياة شخص تكاد حياته تخلو من أي أحداث.

ربما كانت نشوة الحياة ذاتها هي ما شعرت به الليلة.

جلست أستمع إلى قائمة أغاني «سعاد ماسي» وأنا أمارس طقوسي الليلية المعتادة.

انهالت الأفكار على رأسي المستسلم بلا هوادة، ضبطت نفسي متلبسًا بالتفكير في «ليليان» بكل جرأتها وحيويتها وتفاصيلها الممتعة.

دقّت أجراس الإنذار اللعينة في داخلي منذرة إياي بضرورة توخّي الحذر، لم تستحوذ امرأة على تفكيري بهذا الشكل منذ فترات بعيدة للغاية، اقتصر تعاملي مع كل النساء على مَن ألتقي بهن في مجال العمل أو الحياة اليومية فقط.. لا مشاعر.. لا ذكريات.. ولا تقارب من أي نوع، مجرد تعاملات سطحية لا تترك أثرًا، ولا ينشغل بها ذهني بأي شكل من الأشكال.

توالى دخول أنفاس الدخان إلى صدري، هدأت أفكاري تدريجيًّا،

تذكّرت تفاصيل جسدها المثير، وعطرها السحري الآخّاذ، ربما تسيطر على غرائزي فتدفع صورتها إلى عقلي رغمًا عني.. سارعت بطرد تلك الأفكار سريعًا مِن داخلي مستنكرًا وجودها من الأساس، لن يتخطّى الأمر أبدًا حدود الصداقة مهما كلّفني الأمر.

أقنعت نفسي بالعودة مجددًا خلف تلك الأسوار التي لا تقبل بوجود امرأة وراءها، تلك هي القواعد، وذلك هو القانون الأوحد.. لا مكان هنا للنساء، لا مكان سوى لشخص واحد فقط، هو وحده مَن يعرف الحقيقة، هو وحده مَن تألّم، ووحده مَن يحمل ذلك العبء الذي لن يتحمّله معه أحد، هو وحده مَن خاض غمار تلك العواصف المهلكة دون عون من أحد، حتى وصل وقد أوشك على الموت إلى تلك الجزيرة المنعزلة الهادئة.. تعافى وضمد جراحه، أو هكذا ظنّ، دون أن يُدرك أحد ما ألمّ به مِن دمار هائل.. صارع وحيدًا مِن أجل البقاء على قيد الحياة، واختار أن يظلّ كذلك إلى الأبد.

****

« ١٦ »

لا يختلف يوما الجمعة والسبت كثيرًا عن باقي أيام الأسبوع، فهما الآخران أصبحا يحتفظان بروتينهما الخاص والمتكرّر منذ فترة طويلة، يختلف الأمر فقط في كونهما يومين بلا عمل، لا أكون مضطرًا لمحادثة أحد أو التعامل مع أي شخص كان، يومان من الوحدة الخالصة.

استيقاظ دون مواعيد محدّدة، الذهاب إلى التدريب في صالة الجيم، محاولة لكسر الروتين بإعداد بعض الوجبات الصحية والملائمة لتغذية الجسم بكميات كبيرة من البروتين تعويضًا عن إهمالي في الطعام معظم أيام الأسبوع.. في الغالب يمرّ اليومان دون أن أتبادل الحديث مع أي إنسان.

لا أنكر أنني أصبحت أخشى تلك الحياة، أتمنّى أحيانًا أن أضع رأسي على صدر حنون يحتويني بكل آلامي.. دون أن أكون مضطرًا للإفصاح عن أي منها، أتمنّى أن أصرخ حتى ينقطع صوتي دون أن يسمع أحد صراخي.

يؤرقني كثيرًا ذلك الهاجس بأنني قد أموت وحيدًا دون أن يشعر بي أي إنسان.. كم من شخص يعيش وحيدًا هكذا في هذه الدنيا دون أن يُدرك معاناته أحد.. يمرّ كل شيء بطيئًا للغاية، نلعن وحدتنا، ثم نعتادها حدّ الإدمان، وبعدها نخشى أن نبقى هكذا حتى النهاية.. لا معنى لكل ما يحدث بالنسبة إليّ.. هو مجرد موت بطيء.. يقتل كل ما في داخلي ببرودة سفاح عتيد لم يعد يعبأ بموت ضحاياه أو معاناتهم.

كانت الساعة تقترب من العاشرة مساءً، وكنت أجلس لمشاهدة فيلم «Taxi Driver» للعبقري «روبرت دي نيرو» ومن إخراج المبدع «مارتن سكورسيزي».

كان «دي نيرو» يلعب شخصية سائق تاكسي في مدينة نيويورك في سبعينيات القرن الماضي، يعيش وحيدًا بعد عودته مِن حرب فيتنام، وتدفعه وحدته ومعاناته في الحرب لتكوين بعض المفاهيم المتطرّفة، يمرّ بقصة حُب سريعة تنتهي بالفشل، فيُقرّر اغتيال أحد الساسة انتقامًا من حبيبته، وعندما يفشل يذهب لإنقاذ فتاة ليل قاصر رآها ذات مرة مرتكبًا مذبحة في أحد بيوت البغاء، يتحوّل بعدها لبطل شعبي تُمجده الصحافة.

لا أدري لماذا قارنت بيني وبين شخصية بطل الفيلم! هل يمكن أن تدفعني وحدتي يومًا لارتكاب أمر بهذا الجنون؟!

هاجس جعلني أشعر بمدى عبثية تلك الحياة التي اخترت أن أعيشها طوعًا، لكنه كان مجرد هاجس أعرف أنه سيمضي سريعًا دون أن يُغيّر مِن الأمر شيئًا.

رنّ هاتفي المحمول الذي كان بعيدًا عني.. قمتُ متثاقلًا لإحضاره متسائلًا عن مَن يتصل بي في وقت لم أعتَد فيه مثل ذلك الأمر، كانت «ليليان» هي المتصلة، لا أعرف لماذا ترددت للحظة قبل أن أجيبها:

– ألو.

– هاي «حاتم»، أخبارك إيه؟! فاضي ولا هعطّلك عن حاجة؟!

كان صوتها هادئًا بشكل ملحوظ، متحشرجًا بعض الشيء كأنها استيقظت لتوّها مِن النوم، وكان مثيرًا دون أدنى شك.

– تمام.. الحمد لله، إنتي عاملة إيه؟

– أنا كويسة الحمد لله، باقولك إيه.. أنا مسافرة بكرة عندي رحلة لروما.. إمم.. وحبيت أسألك لو محتاج أي حاجة مِن هناك، وأشكرك كمان على ليلة إمبارح.

– ميرسي، ربنا يخليكي.. وما تشكرنيش على حاجة لأني ما عملتش حاجة أصلًا.

كانت ترغب في التحدّث، ومرة أخرى وجدت نفسي مستسلمًا لها، بل ربما شعرت أنا الآخر برغبة في مواصلة الحديث معها، تحدّثنا لمدة ساعة تقريبًا عن عملها، وسفرها إلى دول العالم المختلفة، وتصور الناس لمدى روعة عملها، بينما هو في الحقيقة مجرد عمل بالنسبة إليها، صحيح أنه يتيح لها السفر إلى دول كثيرة، وعمل بعض «الشوبنج» هنا وهناك، التعرّف على أناس مِن ثقافات مختلفة، ولكنه أيضًا منحها أرقًا دائمًا وصعوبة مستمرّة في النوم نتيجة تنقلها الدائم بين مناطق زمنية مختلفة، ككل شيء يبدو مبهرًا في بداياته، لكنه يتحوّل بمرور الوقت إلى عمل روتيني يفرض عليها التنقل من مكان لآخر طوال الوقت، والتعامل مع ركاب الطائرات الذين يظنّ بعضهم أنها موجودة فقط من أجل تلبية رغباتهم وحدهم طوال الوقت، فلا يتوقّفون عن طلباتهم المستمرة التي لا تنتهي، بينما يتمادى البعض الآخر في محاولات غزل مستمرة طوال الرحلة بشكل مزعج وسمج، حتى أصبحت تشعر في أوقات كثيرة أنها تكره هذا العمل، وتتمنّى أن تتركه بلا رجعة.

كنت مستمتعًا بحديثي معها وكلّ منّا يتحدّث عن عمله، وما يعانيه

فيه.. لم نتطرّق في الحديث لأمور شخصية، مما جعلني أشعر بارتياح ورغبة في مواصلة الحديث معها.

انتهت المحادثة بيننا بجملتها التي تردّدت في ذهني لبعض الوقت:

– أنا راجعة كمان ٤ أيام، هاكلّمك أوّل ما أرجع.

– ترجعي بالسلامة إن شاء الله.. باي.

– باي.

انتهت المكالمة وقد خلفت أثرًا لطيفًا في نفسي، ظللت أُفكّر فيها لبعض الوقت متذكّرًا جملتها الأخيرة، هل يُمكن أن نظل هكذا دون أن تتداخل تفاصيل الحياة السخيفة في الأمر.

لماذا لا أستمع إلى نصيحة «مازن» هذه المرة؟!

إن لم أكن راغبًا في دعوة أحد خلف تلك الأسوار التي أحطت نفسي بها، فلماذا لا أخرج أنا لأكسر تلك الرتابة التي أصبحت تسيطر على كل شيء في حياتي؟! ثمّ أعود وقتما أريد لعزلتي تلك، فهي لن تنتهي على أي حال. لن يضيرني أن أجد مَن أتشارك معه الحديث ولو قليلًا، ما دام أنني أبقي على تلك الحدود الوهمية التي أرغب في بقائها، انتهيت من التفكير في الحب أو الرغبة فيه، فما الذي أخشاه إذن؟!

قررت مرة أخرى أن أكتفي بتلك المشاعر اللطيفة التي غمرتني بعد مكالمتها، كنت أشعر ببهجة لا أنكرها وشعور داخلي بالإثارة والترقب غاب عني طويلًا، كأن حياة انبعثت في الحياة.

****

« ١٧ »

استيقظت في اليوم التالي وأنا أشعر بارتياح غير معتاد بالنسبة إليّ.. رغمًا عني تسللت «ليليان» إلى عقلي.. لا بد أنها سافرت الآن، شعرت بحنين غامض إليها، اتصلت بشقيقتي الوحيدة المقيمة مع زوجها وأبنائها في إحدى دول الخليج، سعدت لسماع صوتي، وكدت أبكي بمجرد سماع نبرتها الحانية، اطمأننت عليها وعلى أسرتها، وطمأنتها عليَّ، كالعادة لم أُشعرها بأي شيء، انتهت المكالمة وهي متأكّدة أنّ كل شيء على ما يرام، ولم تنسَ بالطبع أن تطالبني بالاعتناء بنفسي وبالتفكير في الزواج مرة أخرى:

– عايزة أطمَّن عليك يا أخي.. كفاية قلقي عليك وأنا بعيدة عنك.

– يا حبيبتي ما تقلقيش أنا زي الفل، خلّي بالك إنتي مِن نفسك ومن جوزك وبوسيلي الولاد.

كان سماع صوتها يُذكّرني بمشاعر الدفء التي كانت تغمرني بها والدتي الراحلة، وكان كل ما يُهمّني أن لا أجعلها تشعر بالقلق تجاهي. مرّ اليوم سريعًا على غير العادة، وحلّ الليل جالبًا كآبته التى آلفتها واشتياقًا غامضًا لم أعتَده.

يصمت العالم بأسره مجددًا، وأبقى وحيدًا، لا يتردد حولى سوى صوت تلك الموسيقى الكلاسيكية التي أهوى الاستماع إليها، تنسكب ألحانها الراقية داخل روحي كماء مرسل يُصيب أرضًا عطشى بعد طول انتظار، تتصاعد سُحب الدخان إلى رأسي فيتلاشى كل ما حولي، أحلّق

عاليًا فوق كل شيء، تبدو الحياة بأكملها تافهة وبلا معنى، كلّ تلك الصراعات اليومية والحروب التي يخوضها البشر مع كل مَن حولهم من أجل أشياء زائلة، نتقاتل مِن أجل الفوز بسراب يقتل بدوره كل قدرة بداخلنا على الاستمتاع بأي شيء، بدا لي كل شيء ضئيلًا للغاية، أرى كلّ شيء مِن بعيد.. مِن بعيد للغاية، مجرّد كائنات دقيقة تملأ العالم وتتحرّك دون توقّف، تعيش عبث وأوهام امتلاك كاذبة خلقها لهم آخرون، يبدو كل شيء ضئيلًا، ضئيلاً للغاية، ولا يستحقّ أي عناء.

لماذا لا تستمر تلك المشاعر معي طوال الوقت؟! ولماذا لا أستطيع أن أفكّر في كل شؤوني بتلك البساطة فأرتاح مما أعانيه؟!

ملايين الـ»لماذا» تتقافز من حولي فجأة كشياطين مارقة أفلتت مِن الجحيم كي تُحاصرني برقصاتها المحمومة، وضحكاتها الساخرة اللعينة.

****

« ١٨ »

في اليوم التالي باغتني خبر صادم حملته لي بعض الرسائل على هاتفي المحمول.

وجدت مجموعة مِن الرسائل من بعض أصدقاء الدراسة القدامى، أدهشني الأمر وأقلقني في ذات الوقت، عرفت بخبر وفاة «معتز» أحد زملاء الدراسة، كان العزاء اليوم، فأبلغت إدارة القناة كي يحلّ محلي أحد المخرجين الآخرين، كما يحدث عادة عند حدوث طارئ لأي منّا.

ذهبت مِن أجل حضور العزاء بمسجد «آل رشدان» في مدينة نصر، وطوال الطريق الذي استغرق أكثر من ساعتين لم يجل بخاطري سوى هاجس واحد.. الموت، ذلك المصير المحتوم لكلّ منّا، تلك الحقيقة الوحيدة المؤكَّدة في تلك الحياة، والتي تباغت أيًّا منّا فجأة ودون أي سابق إنذار.

عرفت أن «معتز»، رحمه الله، تُوفّي في أثناء إجراء عملية قلب مفتوح تاركًا وراءه زوجة وثلاثة أبناء، لم نكن التقينا منذ عدة أعوام، حاولت تذكُّر تفاصيل ذلك اللقاء الأخير فلم أفلح.. أحزنني الأمر.

رغم تباعد لقاءاتنا لكنني كنت أعرفه منذ سنوات الدراسة الأولى، تلك السنوات التي نظنّ فيها أننا سنظلّ معًا حتى آخر العمر، قبل أن تُخبرنا الحياة بقرارها المؤلم، فعلى كلّ منّا أن يذهب في سبيله، ولو تشتت بنا السّبل.

عرفت من خلال لقاءاتنا القليلة خلال السنوات الماضية سعيه الدائم

– مدفوعًا بطموح زوجته ورغبته في إرضائها– وراء أشياء لم يتسنّ له الاستمتاع بها أو امتلاكها يومًا واحدًا، كان سافر منذ عدة سنوات إلى «دبي» للعمل هناك، استغرقته أحلام زوجته التي لا تنتهي في شراء فيلا فاخرة، وفي امتلاك شاليه في أحد منتجعات الساحل الشمالي مثل باقي صديقاتها، وفي تعليم أبنائه في مدارس أجنبية –لم يرتدها أحدنا يومًا– كانت تكلفه آلاف الدولارات سنويًا، عاش سنوات طويلة في الغربة وحيدًا، وأضاع حياته وراء طموح وتطلعات لا تنتهي دون أن يُدرك أنّ كلّ شيء سوف يتوقف فجأة.

لم تمهل نفسك ولو قليلًا مِن الراحة يا صديقي، ولم تمهلك الحياة كي تستمتع بأيّ مما أضعت حياتك من أجل تحقيقه.. الله يرحمك يا «معتز».

لم يكن ما أفعله في حياتي يختلف في الحقيقة عمّا فعله «معتز» لكن بطريقة أخرى، على الأقل كان يملك طموحًا وأهدافًا يسعى لتحقيقها، أمّا أنا فأفقد حياتي يومًا وراء يوم، دون أن أبالي، ودون أن أدرك أن كل يوم يذهب يجعل النهاية تقترب أكثر فأكثر، دون أن أعرف لحياتي هدفًا واحدًا.

حاولت التخلّص مِن ذلك الخاطر سريعًا مجنبًا نفسي نوبة لوم وحسرة، مستمرًا في إقناع نفسي بأن حالي يختلف عن الآخرين.. اللعنة على ذلك التفكير الذي لا ينتهي.

أتأمّل كلّ ما يجري حولي، أتأمّل نفسي، أتصوَّر أنني أدرك كل شيء، دون أن أملك القدرة على فعل أي شيء في حياتي، كأنني أقضي حكمًا بالحبس الانفرادي المُؤبّد جرّاء جريمة لم أرتكبها، بل ارتكبها شخص

غيري، ودون أن أملك دليلًا واحدًا يُثبت براءتي.
أفعل كل شيء كأنني أشاهد حياتي على شاشة سينما، كأن الأمر لا يعنيني مِن قريب أو بعيد، أكره ما يحدث لي أحيانًا، أكره استسلامي وضعفي، أحاول اجتياز تلك الأيام لكنني لا أفعل أي شيء حقيقى أو ذى جدوى، في الحقيقة فإنني لا أدري أساسًا ما يجب أن أفعله.
كنت أشعر أحيانًا بيقين أنّ ما مررت به وراؤه سبب سوف أدركه يومًا ما، لكنني كلما مرّ الوقت شعرت أنني لن أدرك سببًا لأي شيء.
أظنّ أحيانًا أنّ هناك شيئًا ما سوف يحدث، ربما أنتظر بقعة ضوء، نجمًا شاردًا يُضيء الظلام الحالك ولو للحظة، فأتبيّن طريقًا كنت أجهل وجوده، ربما لا يحدث أي شيء على الإطلاق فتنتهي بي الحياة فجأة كما حدث مع «معتز».
لا أظنّ أنّ الحياة يمكن أن تستمر كذلك حتى النهاية، أو ربما لا أصمد أنا فيها لو استمرّت بهذا الشكل.
لماذا أغرق أكثر في التفكير في الأشياء التي أحاول إبعادها عن رأسي؟ لماذا لا يتوقّف عقلي عن العمل ولو ليوم واحد لألتقط أنفاسي قليلًا قبل أن يُصيبني الجنون؟
أنقذني وصولي إلى المسجد المقام به العزاء مِن تلك الأفكار المنهمرة على رأسي كسيل هادر يُطيح بكلّ ما يقف في طريقه دون هوادة.

****

« ١٩ »

كان صوت القرآن الذي يقوم بتلاوته أحد الشيوخ بعذوبة يتردَّد في المكان، صافحت الواقفين على باب القاعة متمتمًا بعبارة «البقاء لله»، احتضنت والد «معتز» وشقيقيه معزيًا إيّاهم بحرارة، ثم دخلت إلى القاعة، أبطأت مِن خُطواتي في أثناء الدخول باحثًا عمن أعرفه، كنت وصلت متأخّرًا بعض الشيء، لكنني عثرت على ضالتي في ركن بعيد من القاعة التي كادت تمتلئ بالمعزّين.

«أحمد»، و «مصطفى»، و «سامح» زملاء الدراسة القدامى الذين تكفلوا جميعًا بإبلاغي بخبر الوفاة، ذهبت إلى حيث يجلسون، صافحتهم في صمت ثم جلست بجوارهم نستمع مطرقين إلى تلاوة القرآن الكريم، هدأت نفسي كثيرًا لسماع تلك الكلمات الجليلة، شعرت مجددًا بضآلة كل شيء وبتفاهة العالم بأسره.

كنت أحاول أن لا أستسلم لذلك الشرود اللاإرادي الذي ينتابني أحيانًا كلما جلست في هذا الموقف، فأعاود التركيز في الكلمات التي يتلوها الشيخ، مؤنبًا نفسي على شرودي في ذلك الوقت.

مرّ الوقت وقمنا جميعًا بقراءة الفاتحة على روح المرحوم، انتهى الشيخ من تلاوته، وانتهى العزاء.

انتظرنا بعض الوقت حتى يهدأ زحام الخارجين من القاعة، تبادلنا خلاله كلمات العزاء، سرد «أحمد» سريعًا بصفته أوّل مَن عَلِم بالخبر تفاصيل ما حدث متبعًا حكايته بسِباب للمنظومة الصحية في مصر بكل ما

فيها من مستشفيات وأطباء وممرضين، مستنكرًا إهمالهم الذي يطال الجميع ولا يفرق بين فقير يسعى لأبسط حقوقه في رعاية صحية بسيطة في المستشفيات الحكومية، وبين غنى يتكلّف آلاف الجنيهات من أجل الحصول على خدمة جيّدة في أحد المستشفيات الخاصة.. في النهاية المصير واحد.

قمنا بمواساة أهل المرحوم وأقاربه على باب القاعة قبل أن نخرج معًا إلى ذلك الشارع الضيّق المواجه للباب الخارجي لقاعة العزاء، والذي اصطفت فيه سيارات المعزّين، وبينها أخذ يتقافز ذلك الرجل النحيل مطلقًا صفارته المستفزة كلما لمح سيارة تُوشك على التحرك من أجل الحصول على أي أموال من قائدها نظير خدماته الجليلة التي يُقدّمها، والتي لا يعلمها أحد سواه.

كنّا مجموعة من أصدقاء الدراسة الذين فرّقتهم الحياة هنا وهناك كما تفعل دائمًا بأساليبها المعتادة بَدءًا من مرحلة الدراسة الجامعية.

كانوا يقطنون جميعًا في مناطق مدينة نصر ومصر الجديدة، والتي شهدت سنوات نشأتنا الأولى، وكانوا يحرصون على اللقاء ولو على فترات متباعدة، بينما كانت إقامتي التي انتقلت إلى مدينة ٦ أكتوبر البعيدة منذ سنوات طويلة سببًا في قلة لقاءاتي بهم رغم اشتياقي لهم، ولم أكن قد التقيتهم بالطبع منذ أكثر من عام ونصف العام متعللًا في كل مرة يدعونني للقاء بأسباب واهية أدرك عدم صحتها، مُفضّلًا الاستمرار في تلك العزلة التي فرضتها على نفسي، والتي لم أكن أغادرها إلا في أضيق الحدود، ولأسباب قهرية لا يليق معها اعتذار مثلما حدث اليوم.

بعد حديث قصير عن «معتز» والدعاء لأهله وأبنائه بالصبر تحوّل الحديث بشكل مباغت إلى:

– يعني كل ما نحب نشوفك هنموِّت واحد يا عم «حاتم»؟! إيه يا ابني الغيبة دي؟!

قالها «أحمد» معاتبًا إيّاي.

– بِعد الشر عنكم يا حبيبي، عارف والله إني مقصّر.. معلش ادعيلي.

– ربنا يكرمك ويوفّقك يا رب، بس عايزين نشوفك يعني ولو كل فترة.. أديك شايف، ماحدش عارف يومه إمتى.

– جرى إيه يا عم الكئيب، إنت هتسوِّدها في وشنا ليه، مش ناقصاك خالص.

قالها «مصطفى» وهو يمد لنا يده بعلبة سجائره بعد أن أشعل واحدة لنفسه.

– يا عم مش قصدي، أنا بس باقول...

تدخل «سامح» بعد أن أنهى مكالمة هاتفية، وعاود الانضمام إلينا:

– بس إيه يا بني هو إنت طول عمرك مدب كده، إيه يا عم الفنان، ما إنت طول ما إنت قاعد في الصحرا اللي إنت فيها دي لا هنعرف نشوفك ولا نقعد معاك.

– يا ابني صحرا إيه بس، دي قرّبت تبقى وسط البلد، وبعدين ما إنت عارف إن شغلي هناك.. آجي أسكن هنا وأدب المشوار ده كل يوم رايح جاي؟

رن هاتف « أحمد » فبدا عليه التذمّر:

– طب باقولكم إيه هاتِّكِل أنا علشان لسه هجيب مراتي والعيال من عند أهلها.. أم الوَشْ على أمّ الجواز.. ظبّط مع الرجالة وبطّل تنفضلنا يا أستاذ.

– حاضر يا سيدي، باذن الله نتقابل قريِّب، سلِّم على مراتك وعلى الولاد.

– يوصل يا باشا.

رنّ هاتفه مرة أخرى فانصرف ملوّحًا لنا:

– طب سلام يا رجالة علشان هي شكلها ناوية تتطلّق النهارده.

لفت انتباهي مجموعة من النساء والفتيات الخارجات مِن القاعة وهن في كامل أناقتهن رغم ارتدائهن ملابس العزاء السوداء.

لمحهن « سامح » فعلّق موجّهًا حديثه إليَّ:

– إيه يا باشا.. فيه حاجة عاجباك ولا إيه؟!

نظرت له متعجّبًا فاستطرد:

– عادي يا معلِّم، ما النسوان بقوا بيصطادوا العرسان في الأفراح وفي العزا كمان، مش شايف كله جاي متوضّب إزاي؟!

ضربه « مصطفى » في كتفه برفق:

– يا أخي اتلم، هو ده وقته؟!

ردّ « سامح » بإصرار:

– وربنا هي دي الحقيقة، وبعدين هو أنا باقوله اعمل فرح دلوقتي؟!

قررت فضّ الاشتباك سريعًا:

– باقولكم إيه، هي ولا دلوقتي ولا بعدين، مرات « معتز » محتاجة أي

حاجة نقدر نعملهالها؟!

ردّ «مصطفى» وهو يعبث بهاتفه:

– لا يا باشا، الناس في دبي هيخلّصوا كل حاجة، وهيعملوا تسوية وهيبعتولها الفلوس.

– طيب الحمد لله، عمومًا لو فيه أي حاجة محتاجينها أو هتعملوها قولولي.

قال «سامح» وهو يهم بالانصراف:

– أكيد يا «حاتم»، وعمومًا لو فضّلت قاطع كده هجيب الرجالة ونطب عليك، لمّا نشوف آخرتها معاك.

– يا سيدي تنوّروني والله، اعملوها إنتم بس.

انصرف بعد أن احتضنني بحرارة.

– عامل إيه يا ابني؟! طمنّي عليك.

قالها «مصطفى» وهو ينظر لي نظرة أبوية صادقة.

– بخير يا «درش»، أهو، أيام بتعدّي شبه بعضها، ملل وقرف وعايشينه كلنا.. طمنّي إنت عليك، ولادك عاملين إيه؟ تمام؟

– الحمد لله.. بخير، لا طلباتهم بتخلص ولا دوشتهم بتنتهي.

– ربنا يخليهملك وتفرح بيهم.

– ماتوّهش الموضوع، إنت استحليت القعدة لوحدك ولا إيه؟!

– أنا اتعوّدت أبقى لوحدي خلاص يا «درش»، اتعوِّدت أصحى وقت ما أحب، وأنام وقت ما أحب، أعمل اللي عايز أعمله، إنت فاهم يعني إيه جواز والتزامات وزيارات وصداع ما بيخلصش، وبرضه مش هيعجب، طب وعلى إيه!

– الموضوع ده عايز قعدة كده بروقان مش ع الواقف كده.
– إنت شايفلي عروسة ولا إيه؟!
– يا عم شاوِر إنت بس والعرايس على قفا مين يشيل، أكتر م الهم ع القلب.
– عمر ما القلب هيرتاح وعليه هموم يا «مصطفى»، زي ما قلتلك، أنا لو اتجوّزت أي واحدة هابقى باظلمها، كده أحسن.. ما تبهدلش بنات الناس.
ختمت جملتي بابتسامة وأنا أشيح بنظري تجاه مجموعات المُعزّين الذين يتوالى خروجهم وانصرافهم، محاولًا مداراة ما في داخلي لإقناعه بأنّ ما أقوله هو الحقيقة.
تحدَّثنا قليلًا عن عمله ومعاناته مِن تكاليف الدروس الخصوصية لأبنائه، وبين الحين والآخر كان يتذكَّر أحد زملاء أو زميلات الدراسة ممن جمع بينهم «فيسبوك» فيخبرني ما تواتر إليه عنهم من أخبار.
مرّ الوقت سريعًا وانتهى حديثنا على وعد بلقاء قريب، احتضنته بحبّ صادق كنت أعرف أنه يُبادلني إياه، ثمّ انصرف كلّ منا إلى حال سبيله.

****

« ٢٠ »

في السيارة جلست لحظات شاردًا، قمت بتشغيل إذاعة القرآن الكريم، اتخذت طريقي للعودة.. كوبري أكتوبر المزدحم دائمًا ومنه إلى كوبري ١٥ مايو ثمّ محور ٢٦ يوليو، عندما وصلت إلى بداية المحور أدركت أني مستغرق تمامًا في أفكاري فأطفات الراديو مستغفِرًا.

كانت صور الخارجين مِن العزاء تجول بخاطري، نعيش في هذه الدنيا سعيًا وراء أوهام، يظنّ كلّ منّا أنه محور الكون، وعندما نموت يوارينا أحباؤنا الثرى، ثمّ يذهب كلّ منهم مواصلًا حياته كأنّ شيئًا لم يكُن.
خرج كلّ مَن كانوا في العزاء ليُمارس كلّ منهم حياته بشكل طبيعي دون أي تغيير، يشعر كلّ واحد منّا أنه قام بعمل جليل لمجرّد ذهابه إلى العزاء واستغراقه في تلك اللحظات الحزينة التي تمضي سريعًا، وبعدها بلحظات ينشغل كلّ منّا بحياته وعالمه، وكأنّ ما حدث لغيره لن يحدث له إطلاقًا، قد لا يتذكَّر بعضهم حتى هذا «المرحوم» مرة أخرى، مِن أجل ماذا نعاني ونشقى ونحزن ونتألّم! اللعنة على مَن يُشوِّهون حياتنا فيجعلونها صراعًا مريرًا بلا أي معنى على الإطلاق، اللعنة على الدنيا بأكملها.
اشتعل الضجيج في رأسي ثانية، كأنني لست في غنى عن كلّ تلك الأفكار السوداوية الكئيبة.

عندما يحين وقتي لن يشغلني بالطبع مَن يتذكّرني ومَن لا يفعل، ففي النهاية لن أكون هنا لأعرف ما سيفعله أحد، فلماذا أنشغل أساسًا بكلّ تلك الأمور؟!

– الله يرحمك يا «معتز».

قلتها لنفسي وأنا أنزل مِن السيارة التي أوقفتها في مكانها المعتاد الذي لا يتغيَّر هو الآخر.

****

« ٢١ »

يتوالى مرور الأيام دون أن يتغيَّر أي شيء في تلك الحياة، أستيقظ مِن نوم أتمنَّى أن لا ينتهي كي أذهب إلى عمل أتمنّى أن لا أذهب إليه، ثم العودة مرة أخرى إلى ذلك العالم المظلم الذي اخترت الحياة في داخله، كانت نسائم الربيع بدأت تهلّ في تلك الأيام الأخيرة مِن شهر مارس، حاملةً معها إحساسًا باكتئاب خفي لا ينفك يطاردني بين كل فصل وآخر، كأن هذا ما كان ينقصني.. كلّ شيء يبدو بلا نهاية.

عدت مِن عملي وأنا أشعر بضيق هائل دون سبب محدد –كأني لا أملك ما يكفي من الأسباب– ربما ضقت ذرعًا بكلّ شيء، ربما انتهت قدرتي على المقاومة واحتواء ما في داخلي وحدي، ربما لم أعُد قادرًا على الاستمرار هكذا، لم أعُد أستطيع أن أعيش تلك الحياة متظاهرًا بأنّ كلّ شيء على ما يرام، ومُدعيًا لكلّ مَن حولي أنني في أحسن حال.

لست على ما يرام، ولست في أحسن حال، لست قويًّا كما أبدو للناس جميعًا، شعرت أني أوشك على الانهيار، قمتُ بتغيير ملابسي، ثم توضّأت وصليتُ ركعتين، ظللت جالسًا بعدهما في مكاني دون حراك، لم أحاول أن أمنع تلك الدموع التي تسللت هاربة إلى الخارج رغمًا عنّي، بكيت كطفل صغير.. شعرتُ بالارتياح بعض الشيء، لم يكُن هناك مفرٌ من إخراج تلك الشحنة المكتومة قبل أن أتحوّل إلى قنبلة موقوتة، قد تنفجر في أي وقت، كنت أدرك أنّي أؤذي نفسي كثيرًا بتلك الحياة، لكنني كنت أدرك أيضًا أنني لا أستطيع فعل أي شيء حيال الأمر،

كان الألم في داخلي يفوق قدرتي على التحمّل أحيانًا.. يعتصر الروح فيوشك أن يقتلها بينما يبقى الجسد على قيد الحياة.. رحماك يا الله.

أشعرني البكاء بكثير من الارتياح والسّكينة، كما جعلني أشعر بقدر من الامتنان لحياتي وحيدًا، قمت وتوجّهت لأخذ دُش دافئ شعرت بعده باسترخاء لطيف، تناولت عشاءً سريعًا، ثم بدا لي أن الوقت حان لممارسة طقوس الانعزال الليلية المقدّسة.

أمسكت بهاتفي أعبث به قليلًا دون هدف محدّد، وجدت نفسي متلبّسًا بالتفكير في «ليليان»، وسبب عدم اتصالها بي، لم أكُن أنتظر اتصالها في موعد محدد، لكن كان هناك جزء منّي يترقّبه، هل عادت مِن رحلتها وانشغلت بأمر ما أم لم تعُد بعدُ؟!

شعرت بالضيق مِن هذا التفكير ومِن هذا الانتظار الخفي، ألم أنتهِ مِن كلّ تلك الأمور مِن قبل؟!

لماذا تخاذلت عن صدّها مِن البداية مثلما فعلت مع كثيرات غيرها، لماذا تخلّيت عن حذري وقناعاتي القديمة بمجرّد تحدُّثها معي؟!

أليس مِن الأفضل وأد ذلك الأمر في مهده قبل أن يأخذني إلى مناطق قد لا أدري سبيلًا للعودة منها إلى حياتي الساكنة ثانية في سلام؟!

رغم كلّ ما كان يدور في خلدي فإنني تركت هاتفي دون أن أغلقه، لم أدرِ كم مرّ مِن الوقت قبل أن تأتيني تلك الرسائل من «ليليان»، تخبرني فيها أنها وصلت لتوّها إلى المطار بعد عُطل في الطائرة تسبَّب في تأخُّر عودتها لعدة ساعات، وأنها ستعود إلى منزلها في وقت متأخّر لكنها ستتصل بي رغم ذلك.

راودتني مشاعر متناقضة.. سعدتُ بتلك الرسائل، شعرتُ بقلق مِن تطوّر الأمر، كما شعرت بحنق مِن ذلك الحذر البالغ مِن علاقة لم تبدأ بعدُ ولم تبدُ ملامحها، لم نتحدَّث كثيرًا في تلك الليلة، أخبرتني عن رحلتها، وعن ذلك العطل المفاجئ الذي اضطرّها ومعها طاقم الطائرة للانتظار ساعات طويلة قبل عودتهم، لم يكن لديَّ الكثير لأخبرها به –ربما يصيبها الملل بعد فترة قصيرة فتُدرك أنه لا فائدة مني– كانت متعبة فتركتها كي ترتاح مِن رحلتها وتخلد إلى النوم، اتفقنا على اللقاء في معرض «شاهندة» يوم الجمعة في إحدى قاعات الفنون في الزمالك، نسيت تمامًا ما كنت أفكِّر فيه قبل اتصالها بي، ولكني لم أستطِع أن أبعد عن تفكيري هذا التساؤل المقيت.. وماذا بعدُ؟!

****

« ٢٢ »

كانت منطقة الزمالك بأكملها تُمثّل بالنسبة إليّ جزءًا صغيرًا من تاريخ مصر بأكمله، عندما كانت تمثّل ملاذًا يتوافد إليه الأجانب من كل الجنسيات هربًا من جحيم الحروب العالمية التي أنهكت بلادهم، من أجل البحث عن فرص حياة أفضل في دولة كان اقتصادها يعدّ من أقوى الاقتصاديات على مستوى العالم أجمع، إلا أن التغيرات التي شهدتها الحياة السياسية والاجتماعية في مصر منذ منتصف خمسينيات القرن الماضي أثّرت على كلّ شيء، فهاجر منها معظم أبناء الجاليات الأجنبية بلا رجعة ليستمر التدهور الثقافي والاجتماعي منذ ذلك الحين، وحتى الآن دون توقّف، ورغم ذلك ظلت تلك المنطقة صامدة في وجه كلّ تلك التحوّلات على مرّ العقود، واحتفظت برونقها إلى حدّ كبير، إذ تحوّل الكثير من القصور القديمة في المنطقة إلى سفارات وقنصليات لدول أجنبية مما حافظ عليها من الهدم الذي طال غيرها في كل أنحاء المحروسة، لتبقى شاهدًا على زمن قديم كانت مصر فيه محور اهتمام العالم وقِبلة الباحثين عن أمل جديد في وطن كان يحتضن الجميع بلا تفرقة أو استثناء، حتى رغم ذلك الجسر القبيح الذي شيّدناه مخترقًا تلك المنطقة، بقيت تلك البنايات بطرازاتها القديمة والمماثلة لطراز المباني القديمة في دول أوروبا، كي تذكّرنا بعصر قديم تفننا نحن في إفساده وتدميره بقدر المستطاع، كأنّ المنطقة بأكملها خلت مِن مكان

آخر يصلح لإنشاء ذلك الجسر، والذي يجعلك تتساءل وإنت تمر عليه عن إحساس مَن يقطنون تلك البنايات القديمة وهم يطلّون مِن شُرفاتهم فيجدون أمامهم تلك السيارات العابرة ليل نهار، وهي تنفث سمومها في وجوههم وتنتهك خصوصيتهم دون استئذان.

اشتهرت المنطقة بمطاعمها، ومقاهيها، وباراتها الراقية التي يرتادها الكثيرون من أبناء الجاليات الأوروبية، والذين يقطنون هناك، وغيرهم من المصريين بالطبع، كما يوجد بها العديد من المكتبات التي تُوفِّر لمُحبّي القراءة ما يبحثون عنه في كل وقت على اختلاف ثقافاتهم ولغاتهم، بالإضافة إلى هؤلاء الباعة الذين يعرضون المجلات والكتب على الأرصفة هنا وهناك، ويجدون زبائنهم مِن المهتمّين بالقراءة، ممن لا تتحمّل جيوبهم أسعار الكتب ذات الطبعات الفاخرة التي تعرضها تلك المكتبات.

وكان مِن الطبيعي وسط تلك البيئة متعددة الثقافات واللغات أن توجد العديد مِن القاعات الشهيرة والمتخصّصة في عرض الفنون التشكيلية وغيرها، خاصة مع وجود كلية الفنون الجميلة بالجوار.

كان مجرّد التجوّل في هذه المنطقة يمنحني إحساسًا بأنني في مكان فريد مِن نوعه، مختلف في طبيعته عن أي مكان آخر في مصر.

تعمّدت أن أترك السيارة في مكان بعيد متجوّلًا لبعض الوقت في المنطقة قبل أن أصل إلى المعرض الذي تُشارك فيه «شاهندة» مع مجموعة مِن الفنانين الصاعدين كلٌّ بمجموعة من أعماله، والذي كان مقامًا في قاعة الفن بالزمالك في شارع البرازيل.

كانت القاعة الموجودة في إحدى البنايات أكثر مِن رائعة، إذ اتّسمت بحوائطها البيضاء الواسعة التي ضمّت أعمال الفنانين المشاركين من لوحات وبعض الأعمال النحتية.

كان أسلوب عرض الأعمال وطريقة إضاءتها وتلك الموسيقى الناعمة التي تملأ أرجاء المكان تجعلك تشعر برغبة في عدم مغادرته على الإطلاق.

امتلأت القاعة بروّادها مِن مُحبّي الفنون مِن مختلف الجنسيات، وبعض أصدقاء الفنانين، بالإضافة إلى بعض الصحفيين.

أخذت أجول ببصري في المكان باحثًا عن «شاهندة»، فوجدتها تقف مع مجموعة من الأشخاص أمام إحدى اللوحات، ذهبت لتهنئتها، وبعد لحظات ظهر «مازن» وانضمّ إلينا، استغلّ انشغالها مع ضيوفها ليعلن لي عن ضجره مِن بعض هؤلاء المتفذلكين الذين يظنّون أنّهم سيُبهرون مَن حولهم بتكرار أسماء رسَّامين وفنانين مشهورين، ومقارنة أعمالهم بتلك المعروضة في المعرض:

– باقولك إيه.. ما تيجي ننزل نضرب حَجَرين شيشة على أي قهوة ونطلع تاني.. أنا وِرِمت وربنا.. بقالي ٤ ساعات هنا.. خلاص مش قادر.

– يا ابني اتلم، شيشة إيه وزفت إيه! مش قادر تستحمل أول يوم حتى بس؟!

استطرد وهو يتلفت حوله قلقًا مِن أن تُباغته «شاهندة» فتعرف نواياه:

– طبعًا يا باشا ما إنت لسه جاي، إنما الغلبان اللي مسحول بقاله يومين في التجهيز، وواقف مِن الصبح ده يتفلق، وأنا اللي كنت مستنيك تنقذني.

– أنقذك مِن إيه يا ابني هو إنت بتتعذِّب؟! وبعدين ما إنت لازم تبقى جنبها في وقت زي ده.

استطردت ضاحكًا:

– وطالما قلقان كده ما تتنيّل على عينك وتعدِّي ليلتك دي على خير.

رفض الاستسلام في هدوء:

– طب تعالى نشرب سيجارة طيب.

– باقولك إيه.. روح اقف مع «شاهندة» وسيبني أتفرَّج على المعرض، منظري إيه وأنا لسه جاي وأقوم واخدك ونختفي؟! عيب.

ربت على كتفه ممازحًا إيّاه وأنا أرى ملامح الخيبة على وجهه، لم أتمالك نفسي مِن الضحك، كان يُحبّها بحق، فأنا أعرفه جيّدًا، ولم أرَه يهتمّ بأيّ ممن عرفهن مِن قبل بهذه الطريقة.

أخذت أتجوَّل في المعرض وحدي، بدأت بالطبع بلوحات «شاهندة» التي كانت عبارة عن مجموعة من الوجوه التي يحمل كلًّا منها تعبيرًا ما، أو بمعنى آخر قصة يمكن أن تستشفّها من خلال تعابير الوجه وربطها بباقي التفاصيل الموجودة في اللوحة، كانت موهوبة بحق، وكنت سعيدًا مِن أجلها، والحقيقة أن باقي الفنانين المشاركين كانت أعمالهم جيّدة هي الأخرى.

كنت مندمجًا للغاية في مُشاهدة تلك الأعمال محاولًا ربط محتواها بالعنوان الذي اختاره الفنان لها عندما أتاني صوتها الرقيق من خلفي في مرح، وقد أحاط بي عطرها الذي أصبحت أميِّزه جيّدًا:

– تصدّق البت «شاهندة» دي طلعت فنانة بجد؟! هروح أنا فين في وسطكم بقى؟!

التفت لها مبتسمًا:

– فعلًا، صاحبتك موهوبة، حمد الله على السلامة.

ردّت وهي تصافحني بقوة، وابتسامتها تعلو وجهها فتزيده جمالًا وفتنة:

– الله يسلّمك، بُص أنا جاية علشان صاحبتي وحبيبتي «شاهي»، هشوف الكام لوحة بتوعها وتمام أوي، جو الفنانين والعباقرة بتوعها دول أنا ماليش فيه.

– بس المعرض فعلًا حلو.. صحيح فيه شوية حاجات كده مش مستوعبها، بس بصراحة مبسوط، وشغل صاحبتك يجنن.

رفعت حاجبيْها وقالت في لهجة انتصار:

– شفت بقى.. أنا ليه أقف جنب تمثال، وأقعد أبصله مِن اليمين والشمال علشان أحاول أفهم هو عايز يقول إيه؟!

– طيب بس روحي اثبتي حضور الأول عند صاحبتك، وأنا هحاول أشرحلك اللي فهمته.

– أروح لوحدي يعني؟

لم تنتظر ردّي.. أمسكت بيدي وذهبنا معًا، احتضنتها مهنِّئة إيّاها.. تبادلا حديثًا سريعًا ثمّ عادت إليَّ، انضمّ إلينا «مازن».. تنحّى بنا جانبًا، وأخذ يتلفت حوله يمينًا ويسارًا كأنّه سيطلعنا على قرار مصيرى:

– بصّوا بقى، أنا خلاص مش قادر والله.

ابتسمت وأنا أهزّ رأسي في يأس مُدركًا ما يقصده:

– عايز إيه يا «مازن»؟

– أنا هخلع شوية وراجع، البركة فيكم بقى.. لو «شاهندة» سألت.. قولولها ما حبّش يشغلك، راح مشوار في السريع، ساعتين كده وهيرجع قبل المعرض ما يقفل، ماشي؟! سلام.

لم ينتظر أي رد وغادر مسرعًا.

نظرت لي مبتسمة:

– صاحبك مجنون.

– وإيه الجديد؟ بس ابن حلال وبيحبّها.. تعالى بقى أفرَّجك على المعرض، الباشا دبّسنا كده ومش هتقدري تمشي إنتي كمان غير لمّا يرجع.

أخذنا نتجوّل في المعرض وأنا أشرح لها ما فهمته، بينما نحاول معًا فِهم بعض الأعمال التي بدت غير مفهومة لنا، بذلت مجهودًا كبيرًا كي لا أغرق في نوبات ضحك كانت تُثيرها بتعليقاتها المرحة حول بعض الأعمال المعروضة حتى لا يتمّ طردنا من المكان، تبدّلت ملامحها فجأة وهي تقف أمام لوحة لإحدى الفنانات المشاركات في المعرض.

كانت اللوحة تمثّل طفلة صغيرة تضحك ببراءة ومرح وهي تعبث بشعر امرأة كأنها أمّها.. تسمّرت «ليليان» للحظات، لم تنطق بكلمة، وقفت تتأمّل اللوحة طويلًا، لدهشتي سالت دموعها في صمت، اختفى المرح مِن ملامحها وخيّم الحزن على وجهها بغتة، حاولت مداراة الأمر بذهابها

إلى دورة المياه، تسمّرت مكاني لا أعرف ما يجب فعله، عندما عادت بدت أكثر تماسكًا، لكنها اعتذرت لي مُعلنة رغبتها في الانصراف ثم غادرت مسرعة، لم أكُن أفهم ما يجري، ولم تتَح لي الفرصة حتى لأسالها عن أي شيء، كرّرت اعتذارها في رسالة على «الواتساب»، ذهبت إلى «شاهندة» لتحيتها قبل انصرافي، سألتني عن «ليليان» فأخبرتها بما حدث، شردت للحظة وأفلتت مِن بين شفتيْها كلمة واحدة:

– حبيبتي.

عادت سريعًا لطبيعتها، هنّأتها مُبديًا إعجابي الحقيقي بكلّ أعمالها وأخبرتها بما قاله «مازن» عن عودته لاصطحابها قبل إغلاق المعرض.

لم تنسَ أن تشكرني بحرارة لتلبية دعوتها بالحضور، ثمّ انصرفت.

****

« ٢٣ »

حاولت الاتصال بها عدة مرات فلم ترد، عاودت هي الاتصال بي بعد عودتي للمنزل مكررة اعتذارها عمّا حدث دون أن تفسّر لي شيئًا، كان حديثًا قصيرًا شعرت خلاله بنبرة حزن تغلف صوتها، لكننى لم أشأ أن ألحّ عليها كي تتحدّث.

– أنا عندي بكرة مشوار جنبك في الشيخ زايد، لو فاضي ممكن نتقابل لو حبّيت.

– أنا ماعنديش أي حاجة بكرة.. خلّصي مشوارك وكلّميني.

كنت أريد سؤالها عن سبب ما حدث في المعرض، ربّما أردت أيضًا معرفة كل شيء عن تلك المرأة التي تسللت فجأة إلى حياتي بشكل مباغت دون أن أدري، كنت أشعر بفضول لم يراودني مثله منذ أزمنة بعيدة لمعرفة المزيد عنها.

لم أعرف إن كان الوقت مبكرًا لوضع حدود واضحة ومعلنة لتلك الصداقة الوليدة، لا أريد أن أتسبَّب لها في أي ألم من أي نوع، ولم أكُن أريدها أن تظن بالطبع أن هذه العلاقة يمكن أن تتطوّر إلى أي شيء آخر. ربما لا يجب أن أتوقّع أي شيء تاركًا الأمور لتسير دون أي تخطيط مسبق منّي، ودون أن يعترينى أي قلق لا داعي له، ربما لا أجد ما أقوله لها لو جلسنا وحدنا لمدة طويلة.. ربما وربما وربما.

ربّما يجب أن أجد طريقة فعّالة لإخماد تلك الأفكار التي تشتعل في رأسي في كل وقت قبل أن تودي بي إلى الجنون المطلق.

« ٢٤ »

اتفقنا على اللقاء في الساعة الرابعة في « تيفولي دوم » في مدينة الشيخ زايد، ذلك المكان الذي يضمّ مجموعة من المطاعم والكافيهات المتنوّعة، والذي تتوسّطه بركة مائية يجلس حولها روّاد المكان، أو يطلّون عليها في أثناء جلوسهم في الأدوار العليا مِن تلك المطاعم.

أوقفت السيارة في الجهة الأخرى من الطريق المقابل للمكان، إذ كان مِن الصعب دائمًا العثور على مكان أمامه مباشرة، أخذت هاتفي وعلبة سجائري، توقّفت لحظة لأتأكّد مِن عدم نسياني أيّ شيء، فتحت تابلوه السيارة وأخرجت زجاجة عطر صغيرة وضعت القليل منها ثمّ نزلت مِن السيارة.

كنت أشعر في معدتي باضطراب مراهق يذهب للقاء فتاة للمرة الأولى في حياته، عبرت الطريق الأول، توقّفت على الجزيرة التي تتوسّط الطريقين، كان المكان أمامي مباشرة على الجهة المقابلة، تذكّرت أننا لم نتفق على مكان محدد للقاء، اتصلت بها لأسألها عن المكان الذي تجلس به، سمعت فجأة بوق سيارة يصرخ بجواري تلاه صوت عجلات تُحاول التوقّف بعنف، التفت إلى يميني فجأة.. ثمّ.. بدأ الظلام يُحيط بي، وتلاشت الأصوات مِن حولي تدريجيًّا حتى اختفت تمامًا.. شعرت أني في نفق مظلم أتحرّك فيه بسرعة فائقة تجاه ذلك الضوء الساطع البعيد، اختفى كل شيء، حتى ذلك الضوء البعيد أصبح يزداد ابتعادًا عنّي وليس اقترابًا.. ساد الظلام التام، وسكن كل شيء.

« ٢٥ »

فتحت عيناي بصعوبة بعد فترة لم أدركها، آلمني ضوء المكان فأغلقتهما سريعًا، كنت أشعر بنبضات قلبي تتردّد داخل رأسي كمطرقة حديدية يهوي بها حدّاد عملاق غاضب، تتكرّر ضرباته بنفس القوة، وبإيقاع ثابت لا يتغيَّر.

بدأت أعتاد الألم قليلًا، فعاودت فتح عيناي ببطء، أدركت أنني بغرفة في أحد المستشفيات، كنت أشعر بالألم في مواضع عديدة مِن جسدي، سرعان ما وجدت وجه «ليليان» أمام عيني مباشرة وهي تُهلل في فرح:

– حمد الله على السلامة يا «حاتم»، ألف حمد الله على سلامتك.. كده.. كده تخضّني..

ترقرقت عيناها بالدموع فاختنقت الكلمات في حلقها.

حاولت التحدّث فوجدت حلقي جافًا كحبّات رمل في صحراء قاحلة.

– ممكن ميّه!

قلتها بصعوبة وجهد شديدين.

أسرعت بجلب زجاجة مياه معدنية، وساعدتني على تناول عدة رشفات قليلة وهى تسند رأسى بيدها.

– لحظة واحدة.

قالتها قبل أن تخرج مسرعة مِن الغرفة، عادت بعد لحظات ومعها «مازن» و«شاهندة»، امتلأ رأسي بكلمات لم أفهم معظمها، تحلقوا حولي وهم يطمئنون عليَّ ويخبرونني بأن الأمر بسيط، ولا داعي للقلق.

– هو إيه اللي حصل؟
سألتهم وأنا أحاول تذكُّر ما حدث واستيعاب ما يقولونه.
ضغطت «ليليان» زرًا فوق رأسي وعدَّلت مِن وضع السرير فاعتدلت قليلًا، حاولت التأكّد مِن قدرتي على تحريك أطرافي أو الشعور بها، داهمتنى آلام قوية في أكثر من موضع بجسمي، تحسّست رأسي ببطء فوجدت رباطًا حوله.
اقتربت «ليليان» محاولة شرح ما حدث لي بهدوء.

– وإنت بتكلّمني سمعت صوت العربية، والخط قطع، خرجت لقيتك واقع على الأرض.. كنت هاموت، الحمد لله إن الراجل كان لحق يفرمل شوية فالخبطة ماكانتش جامدة، الناس اللي هناك ساعدوني ونقلناك المستشفى، والراجل اللي خبطك جابوه وموجود تحت، الدكاترة قالوا إن مافيش كسور الحمد لله، كلها كدمات.. إن شاء الله مش هتاخد وقت، راسك اتعوّر لمّا وقعت على إزاز العربية، المهم إنك كويس، ما تقلقش.. ربنا سلّم.
تدخّل «مازن» محاولًا التخفيف عنّي:
– يعني ينفع تكسّر عربية الراجل كده يا وحش؟! الراجل هيزعل جامد وربنا، بس باقولك إيه.. وربنا ما هسيب أمّه، يروح القِسم بس وحبايبنا هناك هيعملوا معاه الصح.
لكزته «شاهندة» في كتفه مازحة:
– اتلم بقى وبطّل شغل البلطجية ده..

ثم موجّهة حديثها إليَّ:

– حمد الله على سلامتك يا «حاتم».. إنت رعبتنا.

أكمل «مازن» حديثه بلهجة حازمة:

– وإنتي فاكراني هسيبه؟ يكمَل بس المحضر ويطلع على القِسم وأنا هظبطه.

دخلت الممرضة في هذه اللحظة فأخبرتها «ليليان» أنني أفقت، وطلبت منها حضور الطبيب، تمتمت الممرضة بعبارات متتالية:

– حمد الله على السلامة.. الدكتور بيلف وهيعدّي عليكم حالًا.. أنا هبلغه.. حاسس بوجع؟!

هززت رأسي بـ«نعم»، فقامت بحقن الكيس المعلق بجواري، والمتصل بإبرة الكانولا المغروسة في ظاهر يدي اليمنى بمسكن للألم.

– الدكتور زمانه جاي، وهيطمّنك، ما تقلقش، قدَّر ولطف.

خرجت مِن الغرفة، وبدأت أشعر بمفعول المسكّن يتسلل تدريجيًّا إلى جسمي، بدأت حدة الألم تقلّ إلى حدّ ما.

التفوا حولي ثانية، وعاودوا حديثهم لسرد ما حدث كلٌّ مِن مكانه، «ليليان» مِن موقع الحدث، و«مازن» ناقلًا حالة الرعب التي أصابته من مكالمة «شاهندة» له بعد أن أخبرتها «ليليان» بما حدث، و«شاهندة» التي غادرت المعرض، وكادت تُطيح بسيارتها بأسرة كاملة كانت تعبر الطريق في أثناء حضورها إلى هنا في عجلة مِن أمرها.

كان وجودهم حولي وحديثهم بتلك اللهجة مطمئنًا لي بالفعل، بدأت أحاديثهم تتباعد نوعًا ما مِن أثر ذلك المُسكّن القوي.

بعد فترة لم أشعر فيها بشيء، أيقظني أحدهم، وجدت أمامي طبيبًا شابًا ومعه ممرّضة أخرى يقومان بفحصي، سألني الطبيب عن اسمي، وذَكَرَ بعض الأرقام طالبًا منّي جمعها، أجبت أسئلته بهدوء فاطمأن.
فحص نبضي وعيني، بينما قامت الممرضة بقياس ضغطي وحرارة جسمي.

– لا إحنا تمام أوي، الحمد لله جت بسيطة، الصداع ممكن يطول شوية، لكن مافيش ارتجاج الحمد لله، فيه جروح بسيطة وشوية كدمات، هناخد مسكّنات، والجروح هيتغيَّر عليها كل يومين لمدة عشرة أيام، وطبعًا لازم ناخد بالنا مِن الأكل، هنحاول نرتاح لحد ما الدنيا تبقى تمام، ممكن تروَّح لو عاوز، بس أفضل تستنى لبكرة الصبح علشان نطمّن، وكده كده الأوضة محجوزة.

شكرته، وتذكَّرت أمر ذلك الرجل الذي صدمني بسيارته:

– أقدر أتحرَّك؟

– ممكن طبعًا لو محتاج تدخل الحمام مش أكتر، ما تقلقش، الحمد لله جسمك استحمل الخبطة، وعدت على خير.

ابتسم ثمّ استطرد:

– عاش يا فنان، فيه أمين شرطة مستنّي تحت، ومعاه الراجل اللي خبطك، هياخدوا بس منّك كلمتين بسرعة علشان يكمّلوا المحضر.

هززت رأسي بنعم فغادر، وفّر عليّ بجملته الأخيرة ما أردت أن أطلبه منه.

بعد لحظات دخل أمين الشرطة ومعه الرجل، فطلبت مِن الموجودين

الخروج، كان الرجل يقارب الخمسين مِن العمر، وكان القلق والتوتر يظهران على ملامحه.

بعد أن خرجوا طلبت مِن أمين الشرطة التنازُل عن المحضر، وأخبرته بأنني كنت المُخطئ وليس الرجل لانشغالي بهاتفي في أثناء عبوري الطريق.

انفرجت أسارير الرجل، وتهلّل فرحًا غير مصدّق ما حدث، وأبدى استعداده لتحمّل نفقات المستشفى فشكرته، واستدعيت «مازن» لسؤاله عن من قام بدفع تأمين الدخول للمستشفى، فأخبرني أنها «ليليان»، شكرني الرجل مجددًا قبل أن ينصرف ومعه أمين الشرطة.

دخلت «ليليان» و«شاهندة»، بينما «مازن» يقف عاجزًا عن فهم أي شيء، تبادل معهم نظرات حائرة قبل أن يسألني في ذهول:

– إنت عملت إيه؟

– اتنازلت عن المحضر، أنا اللي غلطان يا «مازن»، الحمد لله ربنا ستر، سيب الراجل في حاله وكفاية خضته.

– يا ريس إنت...

قاطعته «ليليان» بحزم:

– كفاية يا «مازن»، «حاتم» تعبان ومحتاج يرتاح، بلاش نتعبه أكتر، أكيد مش هيغيّر كلامه يعني.

– أنا فعلًا محتاج أرتاح، اهدى بقى يا عم الشرس واستهدى بالله.. فيه عصير؟

ناولتني «ليليان» علبة عصير، اعتدلت وتناولتها كاملة على رشفات متتالية، ثمّ طلبت منها إنزال السرير، فعدلت وضعه للنوم، استلقيت فهدؤوا جميعًا:

– أنا مش عارف أشكركم إزاي، آسف إني تعبتكم وخضيتكم كده..
لم أكمل جملتي، أخذوا يُهمهمون حولي دون أن أتبيّن ما يقولونه جيّدًا، أغمضت عيني واستسلمت لنعاس راودني مجددًا، بدأ كلّ ما حولي يخفت تدريجيًا، عاودتني في نومي بعض المشاهد المتقطعة مما حدث، أفقت عدة مرات، كان الظلام والصمت يحيطان بي، سرعان ما كنت أعاود النعاس، حلمت بـ«ليليان»، كانت تظهر ثم تعاود الاختفاء ثانية، استيقظت ونور الصباح يتسلل إلى الغرفة، وكانت «ليليان» نائمة على أريكة بالقرب منّي، لم أكُن أحلم، بل كانت بجواري حقًا طوال الوقت.
مِن أسبوع واحد لم يكن أحدنا يعرف الآخر، وها هي تبيت ليلتها بجواري دون أن أدري.. وما زال أحدنا لا يكاد يعرف الآخر.
كانت خصلات شعرها المبعثرة على وجهها تزيدها جمالًا وسحرًا بشكل لافت، تأمّلتها وهي نائمة.. لم أشأ إيقاظها، لا أفهم شيئًا مما يحدث.. وضعتها الأقدار في طريقي بشكل غير مألوف أو مفهوم، لا أدري أي مصير كتبته لنا، لا أدري شيئًا سوى أنها فاتنة للغاية، ربما أجمل امرأة وقعت عليها عيناي، أو هكذا أراها.
كانت تلك هي الحقيقة الوحيدة التي أعيها في تلك اللحظة.

****

« ٢٦ »

لم يدّخر ثلاثتهم جهدًا في رعايتي، إذ أحضر لي «مازن» ملابس من شقتي قبل أن يصطحبوني إلى هناك، كنت أتحرّك بصعوبة، لكنني كنت قادرًا على الحركة بشكل أو بآخر، اضطرت «شاهندة» بالطبع أن تعود للوجود في معرضها، إذ كان اليوم هو الأخير، لكن «ليليان» لم تدّخر جهدًا في الاعتناء بي طوال الوقت.

ارتياح كبير شعرت به لنومي على سرير غرفتي مرة أخرى، ساعدني «مازن» في تغيير ملابسي، ثمّ أعطيته كارت الـATM الخاص بي لسحب النقود التي دفعتها «ليليان» في المستشفى، وشراء ما يحتاج إليه المنزل من أشياء من السوبر ماركت، وعندما شعرت «ليليان» أنه لا يعرف ما يجب شراؤه تحديدًا قرّرت الذهاب معه.

لم تكن الشقة في حالة يرثى لها، لكنها بالتأكيد لم تكن في أفضل حال، عادوا بعد ساعة انشغلت خلالها بالردّ على المكالمات التي وردت إليَّ مستخدمًا هاتفًا قديمًا كان لديّ بدلًا مِن ذلك الذي تحطّم في الحادث.

اتصل بي «محمد» وآخرون من العمل بعد أن أخبرهم «مازن» بما حدث، هاتفني معظم العاملين في البرنامج والقناة، كثيرون منهم لم تجمعني بهم سوى علاقة العمل، لكنني شعرت بصدق كلماتهم وحبّهم، غمرتني مشاعر متدفقة من الامتنان والسعادة باهتمامهم، تم ترتيب مَن سيحلّ محلّي في البرنامج حتى عودتي، بعدها أغلقت

الهاتف مرة أخرى.

تمكّنت مِن القيام عدة مرات للذهاب إلى دورة المياه، ولفت انتباهي أنّ أشياء كثيرة تبدّل حالها بلمسة سحرية حوّلت كلّ ما كان يحيط بالمكان مِن قبح وإهمال إلى نظام أنيق لم أعتده، تعجّبت مِن قدرتي على الحياة وسط كل تلك الفوضى التي كانت تعمّ المكان بينما أظنّه أنا على ما يرام.

انتابتني نوبات عديدة مِن النعاس معظم الوقت مِن أثر تلك المُسكّنات القوية التي أوصى الطبيب بتناولها لعدة أيام، كانوا يتركونني خلالها ثم يعودون بمجرد شعورهم باستيقاظي، شعرت بالخجل من كثرة ما كانوا يفعلونه، لم تكن هناك كلمات كافية لشكرهم.

في المساء جلس «مازن» معي، بينما ذهبت «ليليان» و«شاهندة» التي عادت بمجرّد انتهاء المعرض، لإعداد طعام العشاء لنا جميعًا.

اقترب منّي «مازن» وارتسمت على وجهه ملامح الجدية، كأنّه سيطلعني على سرّ حربي خطير:

– بُص بقى يا سيدي، دلوقت إنت مش هينفع تقعد لوحدك.. لازم يكون فيه حد معاك على الأقل يوم أو يومين، وأرجوك يا شيخ ورحمة أمك بلاش عِند.

نظرت له وأنا لا أفهم ما يعنيه:

– مش فاهم.. مين اللي يقعد معايا، وليه؟!

صمت لبرهة قبل أن يردف:

– «ليليان» هتقعد معاك، وأنا و«شاهي» هنعدّي عليك كل يوم، هاخلص شغلي وأعدّي أجيبها ونجيلك.

فاجأني ما قاله للحظات، استغرقتها لاستيعاب ما قاله:

– يا «مازن» أنا كويس ما تقلقش، كفاية اللي إنتم عملتوه من ساعة الحادثة، وبعدين مش هينفع طبعًا الـ...

قاطعني بسرعة محاولًا القضاء على أي مقاومة:

– هو إيه اللي مش هينفع، أنا لو باعرف أعمل أي حاجة كنت قعدت أنا معاك، بس إنت عارفني خيبة، آخري أعمل كوباية شاي وألِف سيجارتين، هتنشّف دماغك يبقى هنقعد كلنا معاك لحد ما تقوم بالسلامة، ولا عايزنا نجيب ممرضة تقعد معاك! لو عينك على واحدة قول يا كبير.

ابتسمت له دون أن أكون قادرًا على التفكير في أي شيء، لم أكن في حالة تسمح لي بالجدال، تذكرت تلك الليالي الطويلة القاسية التي كنت أقضيها أحيانًا على فراش المرض وحيدًا دون أن يشعر بي أحد، فلا تزيدني وحدتي إلا ألمًا يضاعف آلام المرض، لكنني أيضًا لم أكن أتصوّر أن أحدًا سوف يكون معي الآن، خاصة «ليليان».. أصررت على المقاومة حتى النهاية:

– يا «مازن» ما ينفعش، «ليليان» ما تعرفنيش، ومش مطلوب منها أصلًا إنها تعمل ده، وبعدين أنا هيحصلي إيه لو قعدت لوحدي، ابقوا عَدّوا عليّ يا سيدي كل يوم، و...

قاطعني ثانية وهو يبتسم ابتسامة لم أفهمها:

– سيبك من موضوع ما تعرفكش ده، وبعدين إنت لا هتقدر تتحرّك ولا تعمل أي حاجة لنفسك.

غمز بعينه وهو يُكمل هامسًا:

– يعني مافيش خوف منك اليومين دول، وهي اللي طلبت ده على فكرة ومصممة عليه، وخلِّت «شاهندة» تعدّي على شقتها وتجيبلها هدوم قبل ما نيجي ناخدك من المستشفى، يعني ما تحاولش يا معلّم، عايز تحرجها إنت حر، شوف بقى هتتصرّف إزاي.

دخلتا بالعشاء في تلك اللحظة، فصمت وهو ينظر لي ابتسامة واثقة، لم أعرف ماذا أقول في تلك اللحظة، تناولنا العشاء معًا، وكالعادة اهتمّت «ليليان» بطعامي، كما حرصت على أن أتناول الأدوية التي لم أكن أعرف متى يجب أن أتناولها تحديدًا.

كانت ترتدي بيجاما، كأنّ الأمر أصبح واقعًا بالفعل، لم أعرف ما يمكن أن أقوله، قُضي الأمر، ولم يكن بوسعي فعل شيء، كنت أعرف أيضًا أنني لن أكون قادرًا على فعل أي شيء لنفسي لعدة أيام.. فاستسلمت للأمر.

لم يكن في الغرفة الأخرى سوى عدة وسائد كبيرة موضوعة على الأرض ولا تصلح للنوم، بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من الصناديق الكرتونية التي تحتوي على كتبي وبعض الأوراق، حيث كنت أجلس أحيانًا للقراءة أو الاسترخاء.

قامت «شاهندة» بمساعدة «ليليان» في إعداد أريكة الأنتريه الكبيرة للنوم.

قبل خروجه من الغرفة للانصراف بصحبة «شاهندة» اقترب منّي «مازن» قائلًا:

– بكرة هعدّي عليك بعد الشغل، ولو احتجت أي حاجة كلّمني، شِد حيلك يا بطل.

اختتم جملته بابتسامة خبيثة، وغمزة أدركت مغزاها جيّدًا.
ابتسمت لمداعبته وهززت رأسي يائسًا مِن أن يتوقّف عن تفكيره في الأمر بطريقته الخاصة.
ظلّت «ليليان» بجواري لبعض الوقت بعد انصرافهما، بدا الوضع غريبًا تمامًا في تلك اللحظة، لم أكن قادرًا على التحدّث كثيرًا من أثر تلك المُسكّنات، كما كنت أجد صعوبة في التركيز بعض الشيء، لكنّ عقلي لم يتوقف للحظة عن العمل الدؤوب كعادته.
ظلّت التساؤلات تلحّ على عقلي طوال الوقت، كنت أريد أن أتحدّث عن أمور كثيرة لا أفهمها.. أريد أن أعرف مَن هي تلك المرأة التي اقتحمت حياتي، ثمّ جعلتها الأقدار جزءًا منها بشكل مفاجئ وغير مفهوم.
كانت ترعاني بحنان أم تعتني بوليدها الصغير الذي رزقت به بعد طول انتظار.
باتت ليلتها على الأريكة، ونمت تلك الليلة والفضول يكاد يقتلني، لم يكن يشغل رأسي سوى تلك الأسئلة التي أتوق لمعرفة إجاباتها، توارى كل شيء آخر أمام تلك الفاتنة الغامضة.
مَن أنتِ يا «ليليان»؟
لماذا تضيعين وقتك مع شخص لا تعرفين عنه أي شيء، شخص قد يخذلك دون حتى أن يقصد أو يريد ذلك؟
ما الذي تفعله امرأة برقّتك وجمالك في تلك الصحراء الجرداء القاحلة؟
اللعنة على الألم، وعلى تلك المُسكّنات.

« ٢٧ »

استيقظت في الصباح على صوتها وهي توقظني برفق لتناول طعام الإفطار، كانت أشعة الشمس تغمر أرجاء الغرفة بعد أن أزاحت الستائر الثقيلة الداكنة التي كانت تحول دون نفاذ الضوء إلى الداخل.

لم أتمكّن من الانتظار أكثر من ذلك، كان عقلي مشغولًا بتساؤلات عديدة أرهقته محاولات تخمين إجابات لها، طلبت منها الجلوس بعد أن أفطرنا معًا، حاولت العثور على بداية لطيفة لِمَا أريد قوله، نظرت في عينيها مباشرة وهي جالسة على ذلك الكرسي الذي أحضرته ووضعته بجوار سريري مباشرة:

– بجد اللي بتعمليه ده كتير، وماكانش فيه داعي أصلًا لكل اللي عملتيه ده!! بس أنا عايز أفهم إنتي بتعملي كده ليه؟! تاعبة نفسك ليه مع واحد ماتعرفيهوش بالطريقة دي؟ أنا مش لاقي كلام أشكرك بيه على كل ده، بس برضه أنا مش فاهم أي حاجة.

ابتسمت وهي ترفع حاجبيْها وتنظر في عيني هي الأخرى:

– عارفة كويس كلّ اللي عاوز تسأل عليه، وفاهمة برضه إن الوضع غريب، كل اللي حصل كان غريب، بس علشان خاطري ارتاح دلوقت، كلها إن شاء الله يومين تلاتة وهتبقى كويس.

ضحكت بعفوية زادتها جمالًا، ثم استطردت:

– ما تخافش مش هفضل قاعدة هنا، لمّا تبقى تمام هحكيلك كل حاجة عاوز تعرفها، ممكن بقى ما تنشّفش دماغك؟!

مالت برأسها نحوي وهي تناولني كوبًا من العصير، فانسدل شعرها الناعم على جانب وجهها، شعرت وأنا أنظر إليها أنّ عقلي توقّف عن العمل، كأنني تحت تأثير منوّم مغناطيسي بارع يجبرني على الإنصياع لأوامره دون أي مقاومة منّي، أزاحت شعرها خلف أذنها وهي تُكمل:

– وبعدين اللي حصل ده تقريبًا أنا السبب فيه، كنت عاوزني أجري بقى وأسيبك وإنت لوحدك كده؟!

– اوعى تكوني إنتي اللي متفقة مع الراجل يخبطني.

انطلقت ضحكتها مدوّية، وانتقلت عدواها إليّ، إلا أن آلامي منعتني من الاسترسال في الضحك معها، خطر ببالي شيء ما فاستدركت:

– هو إنتي لابسة اللنسز في البيت ليه؟!

أجابت في دهشة:

– لينسز إيه؟! أنا مش بالبس لينسز.

– يعني ده لون عنيكي؟!

أجابت في فخر مصطنع مازحة:

– أيون.

امتزجت دهشتي بخجلي لعدم قدرتي على إدراك أنّ هذا لون عينيها الطبيعي، وكيف كان لي أن أدرك أنّ هذا اللون العجيب كان طبيعيًّا، كانت عيناها خضراوين يميل لونهما تدريجيًّا إلى اللون العسلي من المنتصف.

ضحكت وأنا أبعد نظري عن وجهها خجلًا، ضحكت هي الأخرى، وهي تقوم لإحضار الدواء الذي حان وقت تناوله:

– مش تقول إنك مركّز في عينيا؟! وأنا اللي فاكراك مش واخد بالك.
تأمّلتها وهي تقوم.. لا ينقصك حسن يا «ليليان» حتى تملكي عينين بهذا السحر.
تناولت المسكّن واستسلمت لأثره، لم تهدأ رغبتي بالطبع في معرفة كل شيء، ولكن منطقها كان مقنعًا من ناحية ربما لم تقصدها هي، فأنا فعلًا بحاجة كي أكون في حالة أفضل تتيح لي الانتباه لكلّ ما ستقوله، حتى أكون قادرًا على مناقشتها والردّ على أسئلة مِن المؤكّد أنّها ستسألها.. وتلك النقطة الأخيرة تحديدًا تحتاج إلى يقظتي الكاملة.
لا أنكر أنني شعرت براحة لوجودها معي، انتابني شعور بالسعادة الممتزجة بالفضول والترقّب، فقد أضفى وجودها بلا شك سحرًا على حياتي الجافة بشكل لم أعهده مِن قبل، لكنني أيضًا كنت أخشى اعتياده.

****

« ٢٨ »

بدأت أشعر بالتحسّن يومًا بعد الآخر، لكنه أتى مصحوبًا بالقلق من عودتي مرة أخرى إلى وحدتي بعد انتهاء الأمر، والذي كان لا بد له أن ينتهي.

كانت «ليليان» تقوم بأكثر مما يجب معي، حيث كانت تتولّى كلّ شيء في حياتي خلال هذه الفترة، اعتذرت عن رحلتها التي كان عليها القيام بها في اليوم التالي للحادث، وطلبت مِن إحدى زميلاتها أن تحلّ محلّها متعللة بحدوث ظرف طارئ لديها.

لم تتخلّ «شاهندة» ومعها «مازن» عن زيارتي يوميًّا، إذ كنّا نجتمع كل ليلة لمشاهدة بعض الأفلام الأجنبية الجديدة، أو بعض الأفلام التي أرشّحها لهم مِن أفلام حقبة التسعينيات الذهبية التي لم يكونوا شاهدوا معظمها مِن قبل.

بعد انصرافهما كنّا نستمر في سماع الموسيقى أو مشاهدة التليفزيون، وكانت أحيانًا تطلب مشاهدة المزيد مِن تلك الأفلام التي شاهدت عروضها في دور العرض في التسعينيات، بينما كانت هي لا تزال طفلة صغيرة.

انبهرت كثيرًا بهذه الأفلام، وطلبت منّي إمدادها بقائمة أرشّحها لها لمُشاهدتها، فمنحتها «هارد ديسك» يحتوي على مجموعة هائلة من الأفلام وضعتها عليه مِن أجلها.

أضفى وجودها دون شك كثيرًا مِن البهجة والسعادة على حياتي خلال تلك الفترة القصيرة، وكانت حريصة على أن لا أشعر بالملل طوال الوقت الذي أكون مستيقظًا فيه، وشاركها «مازن» و «شاهندة» بقضائهما معنا ما يستطيعان مِن الوقت كلّ ليلة، شعرت بالامتنان لوجودهم بجواري في هذا الوقت، رغم أنني لم أتوقّع إطلاقًا أن يكونوا معي خلال مرض أو ما شابه.

كنت أخبرت مَن اتصلوا بي أنني سأكون لدى بعض أقاربي خلال تلك الفترة مُفضّلًا الهدوء والراحة على زيارات قد تُرهقني وتُرهق «ليليان» أيضًا دون داعٍ، كما حرصت على إغلاق حسابي على «الفيسبوك» خلال هذه الفترة، كي لا تعلم شقيقتي عن الأمر شيئًا، فلم أكن أريدها أن تشعر بقلق أو انزعاج قد يدفعها للمجيء إلى مصر ظنًّا منها أنّ ما حدث أمر خطير، يكفيها تلك الأعباء التي تتحمّلها في رعاية زوجها وأبنائها، وحياتها وحدها في بلاد غريبة.

****

« ٢٩ »

في اليوم الرابع شعرت بتحسّن كبير، وكان الفضل بالطبع يعود لها، ولتلك الوجبات التي حرصت على تغذيتي بها طوال الوقت على خلاف ما اعتدته، بالإضافة إلى انتظامي في تناول الأدوية بدقة متناهية حرصت هى عليها، كما بدأت أشعر أيضًا بالملل من نومي طوال الوقت على عكس ما كنت أظنّه دائمًا، ربما كان اضطراري للبقاء في المنزل دون اختيار مني هو ما جعلني أشعر باحتياجي للخروج منه.

كان الوقت قبل الغروب بساعتين تقريبًا، غمرتني السعادة وأنا أشعر على وجهي بأشعة الشمس الهادئة المستعدّة للرحيل، تلك التي كنت أهرب منها دومًا، ولا أستيقظ يوميًا إلا وتلك الستائر الثقيلة تحجبها عنّي تمامًا.

أخذنا نسير معًا في ذلك الشارع الجانبي الهادئ الذي أسكن فيه، والذي تحفّ الأشجار جانبيْه، كان كعادته يكاد يخلو مِن المارّة تقريبًا، مررنا بعدة شوارع متشابهة قبل أن نتخذ طريقنا للعودة، لم نتحدّث كثيرًا، لكنها كانت حريصة على التشبّث بذراعي طوال الوقت خوفًا مِن أن أتعثّر أو أسقط، كانت تسألني بين الحين والآخر لتطمئن إن كنت بخير، ولم يفُتها إحضار علبتَي عصير تناولناهما معًا، وزجاجة ماء كانت تدرك أني سأكون في حاجة إليها.

مع سريان الدم في عروقي، بدأت عضلات جسمي تنفض غبار تلك الراحة الإجبارية المقيتة.

مرّت أحداث الأيام الماضية سريعًا في ذهني، منذ ذهابي للقاء «ليليان»، وذلك الحادث الذي كان سببًا في وجودها المفاجئ بجواري طوال الوقت، وما أضفاه ذلك الوجود من سعادة مباغتة، وحضور مبهج ملأ فراغا ظننته لا يمتلئ.

على الرغم مِن كلّ ذلك كان ذلك الحبل الغليظ يجذبنى دومًا إلى الوراء كي أبتعد، كنت أدرك جيّدًا روعة البدايات دائمًا، وكنت وحدي من يعرف أن الاستمرار في أي علاقة سوف يحمل معه أسباب القضاء عليها سريعًا، كنت أحبّ وجودها بجواري، أتعجّب مِن اكتمال تفاصيلها وروعتها، لكنني أيضًا كنت أدرك أنه لا يمكن لـ «ليليان» أو لغيرها تحمّل تلك الأشواك القاسية التي نبتت بداخلي، والتي ستسبّب الجرح والألم لكلّ مَن يقترب منّي أكثر من اللازم.

لم أكن أعرف كيف يمكن أن أشكرها على كلّ ما فعلته، ولم أجد له تفسيرًا حتى الآن، فلم يكن بيننا ما يضطرّها لفعل كلّ ذلك.

عندما عدنا وتوقفنا أمام المنزل أفقت مِن شرودي، وكانت هي ممسكة بيدي في صمت، نظرت إليها بامتنان كبير، كانت شاردة هي الأخرى في أمر ما:

– آسف إني تعبتك، ومتشكّر على كل اللي عملتيه معايا، مهما قلت أو عملت مش هيبقى كفاية.

ابتسمت بخجل وهزّت رأسها وهي تنظر في عيني مباشرة:

– ماتقولش أي حاجة، ما تقولش أي حاجة يا «حاتم».

مرّت الليلة كسابقيها، كانت الساعة تقترب من الثانية بعد منتصف

الليل، جلست على ذلك المقعد بجواري، كانت تلمّ شعرها على هيئة ذيل حصان، لم تبدُ في أيّ وقت من الأوقات أقلّ فتنة أو جمالًا بشكل يُثير الدهشة والحَيرة.

أغراني ذلك التحسّن الذي أصبحت أشعر به، ودفعني فضولي الذي لم أعد قادرًا على كبحه أكثر مِن ذلك لأن أسألها:

– أنا بقيت كويس أهو ممكن تحكي بقى؟!

نظرت لي بهدوء:

– عاوز تعرف إيه؟!

– كل حاجة، عاوز أعرف عنّك كلّ حاجة.

شردت قليلًا كأنها تستحضر ذكريات بعيدة، تنهدت بعمق، ثمّ روت كل شيء.

****

« ٣٠ »

أخبرتني في تلك الليلة بكلّ شيء عن حياتها، عن تلك الطفولة القلقة التي عاشتها وسط شجارات ومشاحنات شبه يومية بين والديها، كان أبوها رجلًا شديد العصبية والغيرة على أمّها بشكل حوَّل الحياة إلى جحيم مستعر، بينما كانت أمّها امرأة قوية ترفض أن يُعاملها أحد بتلك الطريقة، أو يكيل لها اتهامات بأشياء لم تفعلها، لم تستسلم له، ولم يقوَ هو على احتمال امرأة غير خاضعة.

كانت في العاشرة مِن عمرها عندما حدث الطلاق، طرد الرجل والدتها مِن المنزل دون رحمة فارضًا عليها تركها هي وشقيقتها معه.

اضطرّت الأم للإذعان فلم يكن لديها في ذلك الوقت أيّ مصدر دخل لتنفق منه على ابنتيْها، وخشيت أن تعرّضهما لحياة صعبة ومريرة، فضّلت راحتيْهما على كلّ شيء، ولم يكن أمامها خيار من الأساس، كانت تعلم ما سيحدث لو أصرّت على أخذهما، لملمت جراحها وعادت للحياة مع والديها المسنين.

عاشت «ليليان» مع شقيقتها في جحيم قاسٍ، إذ لم يسمح لهما الرجل برؤية أمهما أو الاتصال بها بأي شكل مِن الأشكال.

بمرور الوقت زاد احتياج الفتاتين لوجود الأم في حياتهما، فأصبحتا تتصلان بها، وتقومان بزيارتها سرًّا، ولكن كم كان يُمكن لفتاتين صغيرتين أن تخفيا سرًّا كهذا قبل أن ينكشف أمرهما؟!

عرف الرجل بما كانتا تفعلانه فازداد الجحيم سعيرًا.

لم تتحمّلا الأمر فهربتا للحياة مع أمهما، ومنذ تلك اللحظة أنهى الرجل صلته بهما تمامًا، كما تخلّى عن الإنفاق عليهما رغم ثرائه، تعامل مع أيّ محاولة منهما لرؤيته أو الاطمئنان عليه بقسوة، وجفاء لم يلن يومًا.
لم تستسلم الأم، فبحثت عن عمل حتى تتمكّن من الإنفاق عليهما، حيث لم يكن معاش الجد وحده قادرًا على تلبية احتياجاتهما، ولم تكن لتقبل بزواج جديد لا تضمن آثاره على ابنتيها.
بدأ الموت يختطف كلّ مَن كانت تحبّهم، فتوفّيت جدتها، وبعدها بعامين لحق بها الجد الذي لم يفارقه الحزن يومًا منذ رحيل زوجته، كانت هي وشقيقتها مَن خففتا عن أمّهما آلام الفراق، وأنقذها وجودهما بجوارها من وحدة قاتلة لا يملؤها سوى الحزن والأسى.
أصرّت الأم على أن تُكملا تعليمهما حتى النهاية، وتمكّنت وحدها بالطبع من تجهيز شقيقتها للزواج بعد تخرّجها مباشرة بزميل لها في الجامعة كان يكبرها بعامين، بينما التحقت هي بالعمل كمضيفة جوية في أثناء دراستها الجامعية.
بعد تخرّجها بعام واحد تقدّم لخطبتها شاب أعجب بها عندما رآها في حفل زفاف إحدى زميلاتها في العمل، كان شابًا من أسرة ثريّة، يعمل مهندسًا، ويتولّى إدارة مكتب استشارات هندسية يملكه والده، كان بمثابة فتى الأحلام لأي فتاة.
كانت والدتها تلحّ عليها في الزواج دون أن تخبرها بأمر إصابتها بمرض في القلب، ذلك المرض الذي كان أصابها مؤخرًا، وأخفته عن الجميع، خشية أن تصرّ «ليليان» على البقاء بجوارها، فيفوتها قطار الزواج، وتبقى وحيدة مِن بعدها.

تزوّجت بعد فترة خطوبة قصيرة، كان خطيبها خلالها يمطرها بالهدايا وبمعسول الكلام عن الحياة الرائعة التي سيعيشانها معًا حتى آخر العمر.
بعد الزواج بشهرين تبدّل كل شيء، ظهرت أمامها شخصية أخرى لم تعرفها أو ترها يومًا من قبل، كان زوجها المدلل يشعر بأنه يمتلك كل شيء مِن حوله، تبدّلت معاملته لها، وبدأت تكتشف انغماسه في علاقات نسائية لم يكن يهتمّ أساسًا بمحاولة إخفائها عنها أو مداراتها، ولم يكن أحد من عائلته يعارضه في أي شيء، بل كانوا يرون أنها لا يجب أن تفتعل معه أي مشكلات ما دام أنّه يُوفّر لها تلك الحياة التي تحياها، كان عليها أن تقبل بالأمر الواقع، أو تحصل على لقب مُطلّقة بعد شهور قليلة مِن زواجها.
أدركت أنّها حامل بعد أربعة شهور مِن الزواج، وكانت تأمل أن يُغيّر ذلك الأمر حال زوجها للأفضل، ولكن الأمور لم تزدد إلا سوءًا، حتى إنجابها لابنتها لم يجعل الأمر أفضل بأي حال مِن الأحوال.
كان غروره وثراؤه يجعلانه يطلب من كل من حوله الخضوع التام، تحمّلت الأمر لمدة عام حتى أتى اليوم الذي قررت فيه أنها لن تستسلم لتلك الحياة مهما كان الثمن، واجهته بكل شيء، وطالبته بأنّ يتحمّل مسؤوليته كزوج يحترم زوجته، وأب تحتاج ابنته إلى وجوده بجوارها ورعايته لها، وإلا فإنها سوف تطلب الطلاق.
لم يتأثّر بأي شيء مما قالته، وأخبرها في برود أنه لن يتغيَّر، وإن لم يُعجبها الأمر فلا مانع لديه مِن تطليقها بشرط التخلّي عن حقّها في حضانة ابنتها، لم ترغب في أن تعاني طفلتها الصغيرة مما عانت هي منه

مِن قبل، حاولت احتمال الحياة لأطول وقت ممكن على أمل أن يتغيّر زوجها يومًا، كانت تكره اقترابه منها وأنفاسه تفوح منها رائحة الخمر كل ليلة، ومِن جسده تفوح رائحة نساء أخريات، كرهت تعاليه الدائم، ومعاملته لها باحتقار طوال الوقت.

بذلت كلّ ما في وسعها، لكنها لم تحتمل تلك الحياة حتى إنها فكّرت في الانتحار ذات مرة بعد أن اعتدى عليها بالضرب، أصبحت الحياة منذ ذلك الحين قاتمة، وكريهة بشكل لا يحتمل.

استسلمت في تلك اللحظة، وانهارت قدرتها على الاحتمال، أخذت ابنتها وذهبت إلى منزل والدتها، لكنه لم يتركها في سلام.

استخدم نفوذه، ونفوذ عائلته لتهديدها، وتحويل حياتها إلى جحيم، حتى وصل بهم الأمر للتهديد بتلفيق قضية آداب لها، وإيذاء والدتها لو لم تتخلَّ عن حضانة الطفلة.

لم تقوَ بالطبع على الوقوف في وجههم، ولم تكُن تستطيع.

عاشت مع والدتها، وعرفت بأمر مرضها، وأصرّت على وجود ممرضة بجوارها في أثناء سفرها، لكن ما حدث لها زاد أمّها مرضًا وذبولًا وهي ترى ابنتها تعاني ذات المصير الذي عانته هي يومًا.

لم ترحمها الحياة حتى النهاية، وبقيت ابنتها وحيدة مِن بعدها كما كانت تخشى تمامًا.

لم يقُم والدها حتى بعزائها في وفاة أمها، ولم يُحاول مساندتها بأي شكل مِن الأشكال، انتهى وجوده من حياتها تمامًا في تلك اللحظة، لم يعدّ بالنسبة إليها سوى اسم في الأوراق الرسمية، لم تغفر له ذلك أبدًا، كرهته كما لم تكره أحدًا مِن قبل.

انشغلت شقيقتها في حياتها، واستغرقتها تمامًا تربية ثلاثة أبناء ورعاية زوج سافر لعدة سنوات إلى السعودية، ثم عاد وهو يظنّ أنه لم يكن يعرف شيئًا عن دينه مِن قبل، فرض على شقيقتها الابتعاد عنها لأنها ليست مُحجّبة، بل وصل به الأمر لمطالبتها بترك عملها الذي تُسافر فيه وحدها، والبحث عن عمل آخر أو الزواج، كما طلب منها مغادرة الشقة التي تعيش فيها وحدها، والذهاب للحياة معهم حتى تتزوّج.

هكذا ببساطة أصبح يظنّ أنه يُمكنه تحديد مصائر الآخرين، والتحكّم فيهم، وأنه أفضل منهم جميعًا، اقتصر الأمر على بعض الاتصالات بينها وبين شقيقتها حرصًا منها على عدم إفساد حياتها هي الأخرى.

أصبحت وحيدة تمامًا دون أي ذنب اقترفته تجاه أي أحد في هذه الحياة.

لم يسمح لها زوجها برؤية ابنتها إلا في مناسبات قليلة ونادرة يُحدّدها هو وعائلته، وبالطبع تباعدت تلك اللقاءات بمرور الوقت، وإن تخللها بعض الاتصالات الهاتفية القصيرة من حين لآخر.. ابتعدت المسافات بينهما بشكل إجباري، حتى أصبحت تشعر أن ابنتها لم تعد تحمل لها أيّ مشاعر.

شعرت بالألم كما لم تشعر به مِن قبل رغم كلّ ما عانته في حياتها، كانت تبكي وحيدة في جوف الليالي المظلمة وهي تفتقد كلّ الأشياء التي كانت تتمنّى أن تفعلها مع ابنتها، حُرمت مِن رؤيتها وهي تكبر وتتغيَّر ملامحها يومًا بعد يوم، ومِن رؤيتها تسير أو تنطق للمرة الأولى، مِن لحظات لهو تقضيانها معًا كطفلتين صغيرتين لا تحملان همًّا أو ألمًا، من ضحكات بريئة كانت تتخيّلها في ليالي الوحدة الحزينة، لكنّ أحدًا لم يشعر بآلامها.

أصبحت تقضي وقتها إمّا في رحلات بعيدة ومرهقة، أو في حفلات صاخبة تجعلها مستيقظة حتى الصباح كي لا تُهاجمها تلك الليالي بوحشتها القاسية وكآبتها المريرة.

ارتبطت خلال تلك الفترة بشاب تعرّفت عليه في واحدة مِن تلك الحفلات، وذات مرة وبينما كانت غارقة في نوبة مِن نوبات الحزن التي كانت تغشاها مِن فترة لأخرى، قدَّم لها تلك المادة البيضاء التي تخلب عقل كلّ مَن يأمن لها، قبل أن تذهب بعقله تمامًا وتسيطر عليه بسحرها الملعون، كانت أوّل مرة تتعاطى الكوكايين، أو كما يُطلقون عليه «الكوك».

أدركت سريعًا أنه فعل ذلك كي يُسيطر عليها مِن أجل شيء واحد.. الحصول على جسدها.

كادت تسقط في هاوية لا قرار لها، لكنها أدركت أن استمرارها بهذا الشكل سيودي بها إلى هلاك محتوم.

ساندتها «شاهندة» حتى ابتعدت عن هذا الشاب، وعن تلك الهوة السحيقة التي كادت تسقط فيها لتلقى حتفها.

اعترفت لي أنّها نجت من الإدمان، لكنها كانت أحيانًا تتعاطى «الكوك» على فترات بعيدة في حفلة هنا أو هناك.

أدركت أنّ معظم الرجال مِن حولها مستعدون لفعل أشياء كثيرة، وقول أروع كلمات الحب مِن أجل الحصول عليها، لكنها قرّرت أن لا تُكرِّر خطأها مع ذلك الشاب الذي أوهمها بحبّه، وأن لا تمنح جسدها إلا لَمَن يختاره قلبها فقط، وبمرور الوقت تلاشت تلك الرغبة مِن داخلها، فلم

ترَ حولها مَن لم يُحاول إغواءها ظنًّا منه بأنها فريسة سهلة، كانت تبتسم ساخرة وهي تراهم يجرّون أذيال الخيبة، وينسحبون منهزمين مطأطئي الرأس بعد أن تصدهم بصلابة علّمتها الأيام كيف تكتسبها وتُجيدها تمامًا، وبالطبع كانت تتحوّل ابتساماتها لضحكات صاخبة وهي تتبادل مع زميلاتها في العمل رواية تلك القصص والأفعال التي يتعرّض لها كلّ منهن سواء من بعض الزملاء في العمل أو مِن بعض المسافرين أيضًا.

هكذا ببساطة روت لي كل شيء عن حياتها دون مواربة أو تردّد، حتى في أكثر مناطق وأسرار حياتها خصوصية، كأنّها تجلس أمام كاهن للاعتراف بكلّ شيء، والبوح بكلّ الأسرار دون خجل، كي تتطهر منها إلى الأبد.

لم تخف أي شيء يُمكن أن تخفيه امرأة عن نفسها.

اختتمت حديثها بجملتها التي ظلّت تتردد في ذهني كثيرًا:

– ساعات باحس إن ربنا ما بيحبّنيش، خد مني كلّ الناس اللي بحبهم وسابني لوحدي.

انهمرت دموعها مع ذلك الجزء الأخير.. ودموعي أيضًا.

طوال حديثها لم أشعر سوى بتعاطف شديد تجاهها، تمنّيت أن أحتضنها، أن أمحو كلّ تلك الآلام والأحزان التي مرّت بها بعصا سحرية لا أمتلكها، لكن ذلك القلب بداخلي ظلّ رغم كل شيء يجاهد للصمود، ويرفض الاعتراف أو الاستسلام لحب كامل غير مشروط، أتحوَّل هذا القلب إلى صخر أم أصابه عطب ما؟!

أم هو عقلي من يكبح جماح تلك المشاعر مُدركًا أنها لن تسبب سوى الألم، ربما يأمرني دون أن أدري بأن لا أستجيب لما يجب أن أشعر به في تلك اللحظة؟!

تمنّيت أن أفعل أيّ شيء مِن أجلها كي تختفي كل أوجاعها، كي أراها تضحك في سعادة تنسيها كل ما عانته، تمنّيت أن أجعل حياتها أجمل بكلّ تأكيد، لكنني رغم ذلك كنت أقاوم بإصرار أن أقع في حبّها.

ربما لا أستطيع يا «ليليان»، ربما لا توجد كلمات تكفي كي أشرح لك ما يدور بداخلي، ربما لا يمكنني وصف ما أشعر به تجاهك لأنك لن تفهميه أبدًا.

هل تعجز الكلمات عن التعبير عمّا نشعر به، أم أنّ مشاعرنا تصل أحيانًا لدرجة مِن التعقيد لم تصفها كلمات من قبل؟!

أمسكت بيدها لعلّها تخبرها بما عجز لسانى عنه.. كان الصمت أبلغ من أي شيء يمكن أن يقال في هذه اللحظة، أمسكت يدي بقوة كأنها تتشبّث بها كي لا تسقط من علٍ.

ارتجف جسدها في بكاء صامت، شعرت بدمعة دافئة تسقط على يدي الممسكة بيدها.

أعرف جيّدًا قسوة هذا الألم يا «ليليان»، ولا أعتقد بأنك تستحقينه.

هل يُدرك مَن يرونك كل يوم حجم تلك الآلام التي تراكمت داخل روحك رغمًا عنك؟!

هل يُدركون ما تعانينه أم يرونك فقط تلك الفاتنة الضاحكة التي تملأ العالم سعادة وبهجة فيظنّون أنها لم تعرف يومًا معنى الحزن؟!

كانت تستحقّ أن تحيا في سعادة أبدية، لكن يبدو أن الحياة لا تعطي أحدًا ما يستحقه أبدًا.

أحاط بنا الصمت لبعض الوقت، هدأ بكاؤها تدريجيًا، قالت وهي لا تزال مطرقة:

– أنا آسفة إني...

– هششش.. ما تتأسّفيش، وما تفكّريش في اللي بتفكّري فيه ده.

نظرت لي وهي تمسح دموعها وتحاول الابتسام:

– قلبت لك الدنيا غَم أنا، صح؟!

هززت رأسي نافيًا:

– عمر ما وجودك يبقى معاه غم يا «ليليان».. ممكن ما تناميش بره لوحدك النهارده؟!

فهمت ما أقصده، قامت مِن مكانها ورقدت بجواري، توسدت ذراعها وهي تنظر لي، لم أكن أستطيع النوم إلا على ظهري، نظرت لها مبتسمًا قبل أن أشرد في سقف الغرفة المعتم:

– ارتاحي.. إنتي تعبتي أوي، ومحتاجة ترتاحي.

لم أدرِ إن كنت أقصد تعبها معي في الأيام الماضية، أم معاناتها مِن كل ما قاسته في حياتها بأكملها!

اقتربت مني وانكمشت بجواري كطفلة صغيرة تطلب الأمان، رفعت رأسها وقبّلتني في خدي، ثم عادت لوضعها ثانية، شعرت بأنفاسها الدافئة على جانب عنقي، وضعت يدها على صدري فأمسكت بها، لم أنَم حتى شعرت بانتظام أنفاسها واطمأننت لنومها قبلي.

استعدت كل ما قالته في ذهني، ابتسمت وأنا أتخيّل وجود امرأة بهذا الجمال إلى جواري، بينما كل ما أفعله هو أن أربت على يدها.

أذهلتني تلك الأحداث المتسارعة التي وقعت منذ رأيتها للمرة الأولى، حتى هذه اللحظة التي ترقد فيها بجواري تلك الفاتنة التي يسكنها كل ذلك الألم، والتي ملأت الحياة رغم ذلك بوجودها ومرحها الدائم، وطاقتها التي لم تهدأ طوال الوقت.. لمساتها الأنثوية الساحرة التي أضفتها على كلّ مكان في المنزل فحوّلته إلى مكان تطيب فيه الحياة، أحاديثنا الليلية التي لا تنتهي، ومشاهدتنا تلك الأفلام معًا، تلك السعادة التي أضفتها على حياة كانت تبدو شديدة القتامة والسوداوية. بدا الأمر كحُلم جميل ستقتله حتمًا لحظة استيقاظ لا مفرّ منها تُعيدنا بغتة إلى ما نعيشه في الواقع، واقع لا يمكن أن يستمرّ فيه ذلك الحلم الخيالي المجنون.

****

« ٣١ »

لا أعرف متى غفوت تحديدًا، لكنني عندما استيقظت لم أجدها بجواري، اعتدلت ببطء على حافة السرير، جلست للحظات أستجمع قواي قبل أن أقوم من مكاني، توقّفت قبل خروجي من الغرفة مناديًا عليها:

– «ليليان».

– أنا هنا.. صباح الخير.

قالتها وهي قادمة من صالة الشقة حيث كانت تجلس.

ابتسمت لرؤيتها:

– صباح النور.. خليكي مرتاحة، أنا باشوفك فين، هغسل وشّي وأجيلك.

لاحظت أنها كانت ترتدي ملابس الخروج، غسلت وجهي ببعض الماء الدافئ، وخرجت إلى حيث كانت تجلس. كانت تحتسي كوبًا مِن النسكافيه وتُدخّن سيجارة، أصرّت أن أتناول إفطاري قبل أن أشعل أنا الآخر سيجارة افتقدتها طويلًا، إذ لم تسمح لي بالتدخين طوال الأيام الماضية، تناولت أوّل أنفاسها فشعرت بذلك الأثر المخدر للنيكوتين يسري في جسمي بعد طول فراق.

جلست أمامي على تلك الأريكة الكبيرة التي كانت تنام عليها، كانت حقيبة ملابسها الصغيرة معدّة بجوارها:

– عامل إيه دلوقت؟!

أجبت بهدوء مترقبًا ما ستقوله بعد ذلك:

– الحمد لله.. البركة فيكي.. أنا عارف إنك تعبتي معايا جامد.

– أنا ما تعبتش، أنا كنت هبقى تعبانة بجد لو كنت سبتك في وضع زي ده لوحدك.

تردّدت قليلًا ثم استطردت:

– أنا مضطرّة أمشي علشان عندي رحلة بكرة، ومش مجهزة نفسي خالص.. أنا مجهزالك كل حاجة في التلاجة، علشان خاطري.. كُلْ كويس، وبلاش سجاير كتير.. على الأقل لحد ما تبقى تمام.

لم تشِر من بعيد أو قريب إلى حديثنا بالليلة الماضية.. أصبحت أشعر بمسؤولية ما تجاهها، كما أصبحت مدينًا لها بالكثير:

– كمان؟ مش متعوّد أنا على النظام والدلع ده، إنتي كده بتبوظيلي حياتي يا «ليليان».

ابتسمت باتّساع فازداد وجهها إشراقًا:

– معلش يا سيدي، خلّيها بايظة بس لحد ما تخف، وابقى صلّحها بعد كده براحتك.

اصطحبتني إلى المطبخ وأرتني ما أعدته مِن وجبات معدة ومعلّبة في عبوات بلاستيكية بإتقان، لا تحتاج مني سوى لتسخين محتوياتها فقط، لم أعرف كيف أو متى فعلت كلّ ذلك.

أغلقت باب الثلاجة وأنا أنظر إليها بامتنان، التقت عينانا لثوانٍ أخبرتها خلالها بالكثير:

– وتقوليلي ما تعبتيش؟!

هزّت كتفيها في بساطة وهي تبتسم.

– ميرسي يا «ليليان» على كل حاجة عملتيها.

أمسكت يدها وقبّلتها، لاحظت تلك الارتعاشة التي سرت في يدها في تلك اللحظة.

بعد قليل حضرت «شاهندة» لاصطحابها إلى شقتها.

****

« ٣٢ »

خلا العالم من جديد، بينما انشغل عقلي مجددًا بما حكته «ليليان» عن نفسها.

افتقدت بشدة وجودها حولي، لكنني بدأت أعتاد مجددًا وحشة عالمي، راودنى الحنين لوجود ثلاثتهم بجواري، خاصة هي بالطبع، شعرت معهم بعالم مختلف إلى حد بعيد، داهمتني رغبة ملحّة في الحديث معها وسماع صوتها.

تحدّثنا عدة مرات قبل سفرها، لم تكن الصداقة التي نشأت بيننا تنبع فقط مما فعلته معي خلال الأيام الماضية، لكن تقديري لصدقها معي وإحساسي بمعاناتها جعلاني أرغب في مساعدتها بقدر الإمكان.. كنت أعرف جيّدًا معنى أن يتجرّع المرء آلامه وحيدًا في هذا العالم القاسي الذي لا يرحم أحدًا.

استمتعت بالطبع بتلك الجلسات الطويلة التي جمعتنا ليلة تلو الأخرى، أخذتني إلى عالم جديد من الموسيقى والأغاني التي لم أكن أعرفها، بينما اصطحبتها إلى عالم الموسيقى الكلاسيكية، والأفلام التي أحبّتها كثيرًا.

كان وجودها يملأ الدنيا بالحياة، ورغم ذلك لم يفارقني القلق من شيء مجهول لا أعرفه، أو ربما أعرفه جيّدًا وأتحاشى حدوثه.

عاهدت نفسي على الحرص على أن يبقى كلّ شيء في موضعه، فاستسلامي لتلك المشاعر المتزايدة في داخلي كان يعني شيئًا واحدًا.. أن أقع في حبّها، وعندها سوف يفسد كل شيء.

« ٣٣ »

عدت إلى العمل بعد أيام قليلة قضيتها في التعافي مِن آثار الحادث، كانت حالتي تحسّنت كثيرًا وأصبحت قادرًا على الحركة بشكل أفضل بكثير عن الأيام الأولى، رغم تلك الآلام التي ما زلت أشعر بها في أماكن متفرّقة من جسدي فإنني كنت قادرًا على قيادة السيارة والحركة بصورة طبيعية لا يلاحظ معها أحد ما أشعر به، ربما اعتدت هذا الأمر منذ فترة طويلة، سواء كان ألمي جسديًا أو نفسيًا، أصبحت أجيد إخفاء تلك الأمور عن أعين الجميع.

مرّت لحظات الترحيب الأولى من الجميع، وبدأ البرنامج كما هو معتاد، مجرّد ترهات يُقدّمها صحفي في إطار تليفزيوني جذّاب محاولًا إيهام مشاهديه بأنه لا يسعى سوى للحقيقة، وضيوف يشعرون بالزهو والفخر لجلوسهم أمام كاميرات التصوير، يُدلون بوجهات النظر التي طلبها منهم مذيع البرنامج أو معدوه –بالنيابة عنه– والتي تخدم آراءه وتؤكّد على صحتها، وفي النهاية يتقاضون الثمن ويعودون لمنازلهم، وهم يشعرون بنجومية زائفة لا تستغرق سوى تلك الدقائق التي يظهرون فيها على الشاشة، وبعدها لن يتذكّرهم أحد، لكنهم يجيدون هم أيضًا استغلال ذلك الظهور والاستفادة منه في أمور أخرى في حياتهم، ولتذهب الحقيقة إلى الجحيم ما دام أن المشاهدين يصدّقون تلك الأمور التي يقولونها وهم يتقمّصون أدوار العالمين ببواطن الأمور وخفاياها.

لم تغِب عني تلك الغصة التي كنت أشعر بها كثيرًا عند قدومي إلى

هنا، لكني أرجعت ذلك إلى ابتعادي عن العمل لفترة جعلتني بعيدًا عن أي ضغوط مِن أي نوع.

لم تكن «لي لى» كما أصبحت أناديها قد عادت بعدُ من رحلتها، لكننا لم نتوقّف عن تبادل الرسائل كلما سنحت الفرصة لذلك، كانت تخبرني من وقت لآخر بما تفعله، وكنت أحكي لها ما يدور في يومي، وكالعادة لم يكن هناك الكثير لأحكيه.

كنت أفتقدها دون شك لكنني استسلمت بهدوء للحياة التي اعتدتها طوال الفترة الماضية مقتنعًا تمام الاقتناع أن خروجي مِن تلك المنظومة التي وضعتها لنفسي سيكون محفوفًا بالمخاطر، حتى وإن جاءت تلك المخاطر محمّلة بالبهجة التي أضفتها «لي لي» على حياتي في أثناء وجودها بجواري، كان عقلي يقاوم بشدة رافضًا الاستسلام.. ولم أكُن ألح عليه في ذلك.

****

« ٣٤ »

عندما عادت من رحلتها قرّرت دعوة الأصدقاء الثلاثة تعبيرًا عن امتناني لما فعلوه معي، ولكن « مازن » اعتذر لانشغاله بالعمل في برنامج جديد، فقررت دعوته هو و « شاهندة » في وقت آخر، ولم ألغِ دعوتي لـ « لي لي » بالطبع.

اتفقنا على اللقاء في ذلك المطعم الإيطالي المطلة نوافذه على النيل مِن فندق « نايل ريتز »، والمعروف سابقًا باسم « النيل هيلتون ».

اخترته بعدما عرفت مسبقًا عشقها للطعام الإيطالي.. وصلت قبلها وجلست على منضدة مجاورة للنوافذ المُطلّة على نهر النيل، لم تكن هناك فائدة من الوجود في مكان كهذا لو لم تجلس أمام هذا المشهد الأخّاذ، كانت إضاءة المطعم الخافتة تتحالف مع هذا المشهد البديع في الخارج لتمنحا النفس هدوءًا وسكينة يدعوان للتأمّل.

أشعلت سيجارة وانجرفت كالعادة مع تيار أفكاري التي لا تهدأ، وقبل أن أنهيها وصلت « لي لي ».

كانت ترتدي فستانًا قصيرًا أسود اللون دون أكمام يبرز جمال بشرتها، وحذاءً ذا كعب عالٍ زادها أناقة واكتمالًا.

كانت تضع مكياجًا هادئًا وقد انسدل شعرها على جانبَي وجهها، تأملتها وهي تقترب برشاقة، وقفت مرحّبًا بها قبل أن تجلس أمامي.

غمرت السعادة ملامحها وهي تتأمّل المكان:

– حلو المكان أوي.. أنا أول مرة آجي هنا.

هززت رأسي وأنا أتامّل بدوري المكان معها قبل أن أعاود النظر لها مبتسمًا:

– وأنا كمان...

اتسعت ابتسامتها فزاد جمالها تألقًا وهي تنظر لي بتمعّن، لوهلة شعرت أنني لا أستطيع إبعاد عيني عن عينيها، لكنني تظاهرت بالانشغال بقائمة الطعام:

– اتفضلي إنتي بقى اختاري علشان أنا مش فاهم أي حاجة في البتاعة دي.

ردت وهي تنظر هي الأخرى في القائمة الموضوعة أمامها:

– البتاعة دي واضحة على فكرة.. بس إنت اللي بتهرب.

نظرت لها متسائلًا عمّا تقصده:

– باهرب! مِن إيه؟!

نظرت لي رافعة حاجبيْها وعلى شفتيها ابتسامة خفيفة كأنها تُؤكّد ازدواجية المعنى الذي تقصده:

– مِن إنك تختار..

– إمم.. ماشي.. اتفضلي إنتي برضه اختاري لنا على ذوقك.. إنتي الخبيرة.

طلبنا الطعام وانشغلنا بالحديث عن رحلتها والمتاعب المعتادة التي تُواجهها في عملها، لم يكن لديّ الكثير لأحكيه، لكننا رغم ذلك لم نتوقّف عن الحديث للحظة، كنا نتحدّث كما اعتدنا عن كلّ شيء، عن الفن والسياسة، وعن مقارناتها الدائمة التي لا تنتهي بحكم سفرها المستمر بين كل شيء في مصر، وبين ما تراه في دول العالم المختلفة.

كان حديثها شيّقًا، وكنت أشعر أنها تصطحبني معها في جولة في تلك البلدان دون أن أغادر مكاني، كان يمكن أن يستمر الحديث بيننا لأيام دون أن تنتهي الكلمات أو الموضوعات.

كنا انتهينا من الطعام حين باغتتني فجأة ودون سابق إنذار:

– ممكن أسألك سؤال؟!

هززت رأسي بالإيجاب وأنا أشعر بالتوجّس:

– أكيد.

نفثت دخان سيجارتها لأعلى فخرج حزينًا ينعى مفارقته لشفتيْها، ونظرت لي مرة أخرى بتمعّن:

– إنت لسه بتحبّها؟!

ارتبكت لوهلة لسؤالها، لكنني هززت رأسي نفيًا ببساطة، لا شك أنها لاحظت ذلك الارتباك الذي ظننته لم يستغرق سوى أجزاء من الثانية، نظرت إلى الخارج للحظات ثمّ عاودت النظر إليها، كانت لا تزال تنظر لي بتمعّن، كأنّها تُحاول النفاذ إلى داخلي.

– ليه بتسألي السؤال ده؟!

علشان إنت ما بتحكيش أي حاجة عن الموضوع ده، بتتكلّم عن كل حاجة لكن ما بتحبّش الكلام يقرب من المنطقة دي.

– يمكن علشان مافيش حاجة تتحكي، مجرد قصة وانتهت، واللي في دماغك ده مش موجود خالص.

هزّت رأسها بهدوء، ومرّ الأمر بسلام، لم تلحظ ذلك الاضطراب الداخلي الذي اعتراني، تلك النيران التي اشتعلت بسؤالها، لم تصر على مواصلة الحديث في الأمر.

– إنت وراك أي حاجة النهارده؟!
– لا.. خالص.
– يبقى يلّا بينا.
قالتها بحيوية وابتهاج.
– يلّا بينا على فين؟!
– هنسهر مع بعض.. عندك مانع؟!
– لا ماعنديش.
– طيب يلّا، هعدّي على البيت الأول أسيب العربية وآجي معاك.
انتقلت حيويتها إليّ، غادرنا المكان وأنا أُفكّر في ما سنفعله، وأين سنذهب، لم يكن هناك فارق، فوجودها يملأ الحياة جمالاً وروعة.
سرت وراء سيارتها حتى منزلها، تركت سيارتها واستأذنت في الصعود إلى شقتها لإحضار شيء ما.
قبل أن تصل إلى مدخل العمارة التي تقطن بها سمعتها تُطلق صرخة قصيرة مكتومة وتنحني أرضًا، قفزت إلى خارج السيارة وأسرعت إليها، تنفّست الصعداء وأنا أراها تُداعب قطة وليدة يبدو أنها ضلّت الطريق عن أمّها، كانت تقف بجوار المدخل والخوف بادٍ عليها، حملتها «لي لي» برفق وحنو وهي تربت عليها لتطمئنها وتهدّئ مِن روعها.
لم أعرف ما يجب فعله، فلم أتعامل مِن قبل مع أي حيوان أليف، ولم أعرف ما كانت ستفعله هي أيضًا.
كانت تداعبها برقّة وقد تغيّرت ملامحها كأنها تنظر إلى طفلتها الصغيرة.

– ماعنديش لبن، ممكن نجيبلها لبن الأوّل؟!

– أوكيه.. ماشي، نجيبلها لبن.. إنتي هتعملي إيه؟!

– يعني هاعمل إيه يا «حاتم»، لو سبتها في الشارع ممكن تموت، هاخدها عندي طبعًا.

– أيوه بس.. دي قطة من الشارع.

– دي لسه مولودة، أنا مش هاقدر أسيبها، بص عاملة إزاي؟!

ككل الكائنات الصغيرة، كانت بريئة للغاية، تموء بصوت ضعيف متقطّع يكاد يكون غير مسموع، تكاد نظرة عينيها تفطر القلب.. ألا نولد جميعًا بتلك البراءة قبل أن يلوّثنا العالم بكلّ ما فيه؟

هززت رأسي مستسلمًا بدوري لتلك البراءة التي لا يملك المرء مقاومتها.

ذهبنا لشراء ما تحتاجه ثمّ عدنا، صعدت إلى شقتها والسعادة تملأ ملامحها، انتظرتها بعض الوقت وأنا أُفكّر في تلك المرأة التي يبدو أنها لن تكفّ عن مفاجأتي بجوانب جديدة لم أكن أراها فيها مِن قبل.

عندما عادت كانت ترتسم على وجهها حماسة طفولية، جلست بجواري وأخرجت مِن حقيبتها قمعين بلاستيكيين مثل ذلك الذي كان معها عندما رأيتها لأوّل مرة، مدّت يدها بأحدهما وهي تضحك:

– مساء الفل يا معلم.

أضحكتني طريقتها في الحديث، والتي تتعارض كليًّا مع كل شيء فيها، أخذته منها وقبل أن أخرج ما بداخله أقلقني خاطر ما:

– «لي لي».. اوعي تكوني بتجيبي الحاجات دي معاكي.

ضحكت وهي تهزّ رأسها:

– لأ طبعًا، أنا خوَّافة جدًّا، الحاجات دي بتيجي لوحدها.
– بتيجي لوحدها إزاي يعني؟! بتركب الطيّارة وتيجي تنط عندك في الشقة؟!
– لأ طبعًا، فيه ناس هي اللي بتجيب الحاجات دي، عادي يعني، زي أي حاجة بتدخل البلد.
أشعل كلّ منّا سيجارته الآتية مِن بعيد جدًّا، كان الشارع بدأ يخلو مِن المارّة، وموسيقى «موتسارت» تصدح فتمنح المشهد بأكمله لمسة سيريالية.

تحرّكنا بالسيارة في شوارع بدأت تتوه معالمها منّا بعد قليل، كنّا نحاول الوصول إلى مكان نعرفه، فإذا بنا ندور في دوائر تعود بنا إلى نفس الأماكن مرة أخرى.
كانت ضحكاتها الصافية كضحكات طفلة صغيرة لم تحمل ضغينة ضد هذا العالم بعد، تتردّد من حولنا فتطغى على أحزان الكون وتملأه بهجة ومرحًا.

انخرطت معها في نوبة ضحك لا إرادية، خاصة وهي تحاول التوقف عن الضحك مطلقة تلك الصرخة المكتومة كأنها تستغيث بي للنجاة من تلك النوبة التي أصابتها، كانت تتصرف بعفوية تمامًا، لم تكن تفتعل أمامي أي شيء، ولم تكن تفعل ذلك إلا عندما نكون وحدنا، كانت حقيقية للغاية وفاتنة أيضًا.

تمكنّنا أخيرًا من الخروج من تلك المتاهة التي ابتلعتنا لبعض الوقت، وذهبنا إلى ضاحية الزمالك القريبة من منزلها.

«فولفجانج آماديوس موتسارت» مؤلّف موسيقى نمساوي يعدّ من أشهر العباقرة المبدعين في تاريخ الموسيقى إذ نجح في إنتاج ٦٢٦ عملًا موسيقيًّا وقام بقيادة أوركسترا وهو في السابعة من عمره، وُلد في ٢٧ يناير ١٧٥٦ ورحل في ٥ ديسمبر١٧٩١.

« ٣٥ »

اصطحبتني إلى مكان لم أعرفه من قبل في أحد شوارع الزمالك الجانبية الهادئة التي تدبّ فيها الحياة ليلًا أكثر بكثير مما يحدث في النهار.
نزلنا عدة درجات إلى الأسفل، ثم سرنا في ممر ضيق أفضى بنا إلى باب مغلق، دلفنا منه إلى بار أشبه بحانة قديمة الطراز، كأننا عبرنا إلى زمن قديم.
في أقصى اليسار كان يوجد بار طويل مصنوع بشكل يوحي بالقدم والفخامة يكاد يحتلّ الجهة اليسرى بأكملها، وفي مقابله ساحة مربعة تحيط بها مناضد مختلفة الأشكال والارتفاع، احتلت حوائط المكان لوحات فنية مقلّدة لأشهر الأعمال الفنية العالمية سلطت عليها أضواء مِن أعلى فبدت اللوحات كأنها هي منبع الضوء، وفي بعض الأركان توزعت بعض التماثيل التي توحي بأنها تحف قديمة حقيقية، كان المكان مبهرًا بتلك اللمسات التي أضفت عليه أناقة أزمنة ماضية.
كان معظم الموجودين من جنسيات أجنبية، جلسنا على منضدة متطرفة في أحد الأركان، بينما كانت موسيقى الجاز تصدح في المكان.
كنت أشعر بانتشاء كافٍ، فاكتفيت بزجاجة جعة، وتناولت هي كأسين متتاليين، قامت بعدهما لتقف بجوار المنضدة التي جلسنا عليها تتمايل على أنغام الموسيقى، كان بعض الموجودين يرقصون بجوار المناضد التي يجلسون عليها، بينما انخرط البعض الآخر في الرقص بمهارة واضحة في تلك الساحة التي تتوسّط المكان.

أغمضت عينيها واستسلمت لإيقاعات الموسيقى التي بدأت تعلو وتزداد سخونة، استغرقت تمامًا في ما كانت تفعله، اقتربت مني فجأة ومدت يدها لي، ترددت للحظة ثمّ قمت وشاركتها الرقص، كانت الإيقاعات تدقّ داخل رأسي بعنف فانسقت لها أنا الآخر بشكل تام.

بدت على ملامحها الدهشة وهي ترى مجاراتي لها في الرقص بسلاسة بدا أنها لم تكن تتوقّعها، تذكّرت سنوات بعيدة للغاية كنت أفعل فيها ذلك، بل كنت أفعله أحيانًا وحدي في ظلام الليل.

كنت أهرب أحيانًا من هذا العالم القبيح بالاستغراق في نغمات الموسيقى مستسلمًا لإيقاعاتها حتى ينهكني التعب، أو تهزمني مرارة الذكريات.

انعزلنا عن كل ما حولنا كأننا وحيدين تمامًا، أنستني الحرارة التي اندفعت في عروقي تلك الآلام المتبقية هنا وهناك.

أخرجتني «لي لي» من قبو مظلم ظننت أني لن أغادره أبدًا، جعلتني أدرك فجأة أنني عشت حياة طويلة أفعل فقط ما ظننت أنه سيسعد غيري دون أن أدرك أنني لا أفعل شيئًا يسعدني أنا، تناسيت كلّ ما يدور في داخلي ولم أرَ سواها.

كانت تتمايل وتدور فيتمايل معها الكون مُغرّدًا باسم تلك الحسناء التي تخرج آلامها وأوجاعها رقصًا، فيراها مَن حولها جميلة، عابثة لا تبالي، دون أن يدرك أحد حقيقة ما في داخلها.

أنهكنا التعب فجلسنا ندخّن السجائر بشراهة، جلست بجواري في هدوء تستمع للموسيقى وقد وضعت رأسها على كتفي، ازدحم المكان بروّاد يبدو أنهم اعتادوا الوجود هنا كثيرًا، ولقاء بعضهم البعض.

انصرفنا في وقت متأخّر، اصطحبتها إلى منزلها، كانت قد أفاقت نوعًا ما، لكنها كانت تتحرّك بصعوبة بعض الشيء مِن أثر تلك الكؤوس التي تناولتها عقب ذلك «الجوب» الهولندي العظيم، صعدت معها ممسكًا بيدها لتوصيلها إلى شقتها، ودعتني بقبلة على خدي، ثم انصرفت، بعد قليل اتصلت بها للاطمئنان عليها وكانت على وشك النوم.

****

« ٣٦ »

عدت إلى المنزل وأنا مرهق للغاية، لم أتمكّن من فعل أي شيء سوى الاستلقاء على السرير.

كان عقلي مشغولًا بها تمامًا، رغم كل ما ألمّ بها طوال حياتها ووحدتها القاتلة في هذا العالم لم يفقد قلبها القدرة على العطاء والحب , عندما نحيا وحيدين مع أوجاعنا يبدو الأمر كأنّ الحياة بأكملها قد تحوّلت إلى نفق مظلم، حينها يبدو كلّ شيء مبهمًا وغامضًا، يتحتّم علينا مواجهة أشباح وشياطين غير مرئية لا يُشاركنا غيرها وحدتنا، يتطلّب الأمر اكتساب قوى وقدرات جديدة لم نألفها مِن قبل إن أردنا اختراق هذا الظلام دون الوقوع في فخه المميت.

لكن أغلب مَن يصلون إلى الطرف الآخر يفقدون في الطريق الكثير مِن عواطفهم ومشاعرهم تجاه العالم، كأنه هو المسؤول عن تلك الخطيئة التي ارتكبها أحدهم في حقهم، فيفقدون القدرة على الحب أو التعاطف أو المبالاة بأي ممن حولهم، تتضاءل أمامهم متاعب الآخرين فيرونها لا شيء مقارنة بما مرّوا هم به، تقسو قلوبهم حتى تكاد تموت.

قليلون فقط هم مَن ينجحون في عبور كل تلك الظلمة دون أن تتأثّر قلوبهم، هكذا كانت «ليليان».. بقي قلبها حيًا، يمنح الحبّ لكلّ من حولها في هذا العالم، لم يكن سحرها وروعتها يقلّان عن حنانها وعطائها بأي حال من الأحوال.

كانت تملك قلبًا ذهبيًا دون شك.. ليتني كنت مثلك يا «لي لي»، ليتني أستطيع أن أكون مثلك.

« ٣٧ »

تعددت لقاءاتنا في معظم الأوقات التي كانت تقضيها هنا بعد عودتها من رحلاتها، كنّا نلتقي مرة في الأسبوع على الأقل، نشاهد أحد الأفلام في السينما ثم نذهب لتناول العشاء، أو نجلس على مقهى في شارع المعز ثم نذهب لنحضر إحدى حفلات الإنشاد الصوفي داخل أحد تلك البيوت الأثرية هناك، نسير دون هدى في أزقّة الحسين وخان الخليلي ثم نتناول طعامًا في أحد المطاعم الشعبية هناك، نحضر حفلًا في دار الأوبرا، أو نذهب لحضور أحد المعارض الفنية التي توصي بها « شاهندة ».

أصبح عالمي أكثر بهجة وإشراقًا دون أدنى شك، فعلت خلال أقل من شهرين ما لم أفعله طوال أكثر من عامين، كانت صداقتنا تزداد متانة، ويزداد معها شعوري تجاهها بالامتنان والمسؤولية المطلقة.. وبالحب أيضًا.

وكلما شعرت تجاهها بالمزيد اشتعل الصراع بداخلي أكثر فأكثر، فرغم كل شيء كانت أسباب موت هذا الحب أقوى بكثير مِن قدرته على البقاء والصمود، وكنت وحدي أدرك ذلك وأعرفه.

****

« ٣٨ »

في ليلة السفر إلى صحراء الواحات لتغطية الرالي لم أتمكّن من النوم، ظللت أتابع بالهاتف معظم التفاصيل للتأكّد مِن وجود كل المعدات التي سنحتاج إليها سواء للتصوير أو الإقامة، والتأكّد كذلك مِن اكتمال طاقم العمل المسافر معنا.

تحرّكنا بعد الفجر بقليل، كنت أشعر بالإثارة والترقّب لذلك العمل الذي سيبقيني في الصحراء لمدة ثلاثة أيام كاملة.

كان المكان الأمثل للتفكير والتأمّل.. والوحدة أيضًا.

استغرقت في النوم طوال الطريق، وبدأنا العمل منذ اللحظة الأولى لوصولنا.

عندما وصلنا لاحظت أن معظم المشاركين في السباق، وكذلك المصاحبين لهم مِن أفراد عائلاتهم أو أصدقائهم قد خلعوا أحذيتهم وأخذوا يسيرون حفاة تمامًا على رمال الصحراء، كانوا يعودون للطبيعة الأولى، ويستمدّون من رمال الصحراء طاقة إيجابية انعكست على ملامحهم الضاحكة، دعاني بعضهم لأن أفعل مثلهم فلم أتردّد، كان الأمر عجيبًا بحق وذا أثر مذهل لم أتوقّعه، كأنّ طاقة خفية تندفع في العروق بشكل سحري وعجيب.

بعد أن تناولنا جميعًا طعام الإفطار البدوي في تلك الخيمة الهائلة التي أعدّها أفراد من البدو قبل وصولنا، بدأ المتسابقون في إعداد سيارات الدفع الرباعي التي سيُشاركون بها في السباق استعدادًا لبَدء المرحلة

الأولى في اليوم الأول.
تحوَّل المكان إلى خلية نحل لا تهدأ، المنظمون في الخيمة الكبيرة يقومون بإعداد لوحات كبيرة تمثّل خطوط السير بالنسبة إلى كل مرحلة، يتأكّدون مِن جاهزية أجهزة اللاب التوب التي سيُسجّلون عليها نتائج كل مرحلة، بينما يقوم بعضهم في الخارج بإعداد مكان الانطلاق والختام للمرحلة الأولى.
انهمك المتسابقون ومعاونوهم في التأكّد مِن جاهزية سياراتهم وأجهزة ال جي بي إس الخاصة بهم، ووسط كلّ ذلك يتنقّل معي الطاقم المصاحب لي لتغطية كل التفاصيل، وعمل لقاءات سريعة مع كل المشاركين في السباق، وكذلك مراجعة خط السير، وتحديد النقاط التي ستوضع بها كاميرات التصوير، وتجهيز السيارة التي ستوضع عليها الكاميرات المصاحبة لسيارات المتسابقين.
انهمك الجميع في العمل حتى جاءت اللحظة التي ينتظرها الجميع.
أنستني إثارة السباق تلك الحرارة الملتهبة التي تصبّها الشمس فوق رؤوسنا، والتي أجبرتنا على تغطية رؤوسنا بتلك الأغطية البيضاء التي اشتريناها من جماعة البدو الذين كانوا يتواجدون حولنا ببضائعهم منذ اللحظات الأولى لوصولنا.
اندفعت السيارات في طريقها عبر وادٍ فسيح تحيط به جبال هائلة تبدو من فرط ضخامتها أقرب بكثير مما هي عليه في الحقيقة، ثم بدأت في تسلّق الكثبان الرملية والهبوط عليها بمهارة شديدة تثير الإعجاب، قبل أن تقوم بالمناورة حول بعض المناطق شديدة الوعورة وصولًا لخط النهاية للمرحلة الأولى.

لم يخلُ الأمر بالطبع مِن صعوبات واجهت بعض المتسابقين الذين أخطأ بعضهم حساباته فعرقلت الرمال سياراتهم بعناد لا يلين، بينما تعطّلت سيارات البعض في لحظات حاسمة بينما كانوا يتقدّمون السباق، فأنهوه متأخرين عن غيرهم.

كان اليوم مثيرًا بحق رغم الإرهاق والحرارة الشديدة.

أنهينا اليوم بلقاءات جديدة مع المتسابقين للحديث عمّا حدث خلال السباق، واستعداداتهم للأيام التالية، وبدأنا نحن أيضًا استعداداتنا لتغطية اليوم التالي قبل أن يخلد الجميع إلى الراحة لبعض الوقت.

فى المساء تناولنا جميعًا طعام العشاء قبل أن نتفرّق إلى مجموعات متناثرة هنا وهناك.

رغم الظلام الذي ساد حولنا، كان الوقت لا يزال مبكرًا للخلود إلى النوم، انهمكت كلّ مجموعة في أمر ما، فانشغل البعض ببمارسة بعض الألعاب على أجهزة اللاب توب، بينما جلس البعض لسماع الموسيقى وتدخين الشيشة، تحلّق البعض الآخر حول سياراتهم بالخارج في جماعات، إذ اصطحب المتسابقون بعضًا من أصدقائهم وزوجاتهم للاستمتاع بتلك المغامرة الفريدة وسط تلك الطبيعة الساحرة.

وحولنا جميعًا انتشرت سيدات بدويات يعرضن بضائعهن مِن الحلى والإكسسوارات والملابس والأطعمة، بينما عرضت بعضهن خدماتهن المزعومة في قراءة الطالع ووشوشة الودع.

كنت قد تعرفت على بعض المتسابقين، جلست معهم لبعض الوقت ثم انصرفت مستشعرًا حاجتي للانفراد بنفسي، سرت مبتعدًا قليلًا عن تلك الضوضاء، كان عدة أشخاص انتشروا في المنطقة المحيطة بالخيمة،

يبحثون يائسين عن نقطة يمكنهم فيها التقاط إشارة لهواتفهم المحمولة، الأمر الذي لم يشغلني كثيرًا لسفر «ليليان» في ذلك الوقت، بينما اجتذبت البعض الآخر تلك الصحراء بروحها الدافعة للتأمّل والهدوء.

أخذت أتجوّل وحيدًا مستمتعًا بذلك الهواء النقي المنعش، لم يمضِ الكثير قبل أن يهزمني التعب ويغالبني النعاس، استلقيت قليلًا في إحدى السيارات المصاحبة لطاقم التصوير، قبل أن نستيقظ جميعًا مع أضواء الفجر الأولى.

****

« ٣٩ »

مرّت الأيام سريعًا، وانتهى السباق المثير، بحلول ظهيرة اليوم الثالث كان السباق قد انتهى، ووصلنا إلى نقطة النهاية، تمّ إعلان النتائج النهائية وتبادل الجميع التهاني وسط أجواء سادتها الروح الرياضية الرائعة.

اصطحبني أحد المتسابقين بعدها في سيارته في جولة حرة اشترك فيها جميع المتسابقين، أخذوا يستعرضون فيها مهاراتهم في القيادة وسط المناطق الوعرة، وفي اجتياز الكثبان الرملية المرتفعة في لحظات سادها المرح، ولم تخلُ مِن المخاطرة أيضًا.

كان الأمر ممتعًا بعد أن تخطّيت لحظات القلق الأولى فتحوّل الأمر إلى مغامرة مثيرة لم يغادر أثرها نفسي، بعدها سمح لي بقيادة السيارة بنفسي في بعض المناطق الأقل خطورة معاونًا لي بإرشاداته لي في أثناء القيادة.

شيء ما تسلل إلى داخلي في تلك اللحظات، إحساس سكنني بالمغامرة، والرغبة في التحدي وكسر المألوف.

عندما غادرت السيارة شعرت بأنّني شخص آخر يختلف عن ذلك الذي كان يشعر بالخوف منذ وقت قليل، تخطّيت حاجزًا ما دون أن أدري.

عدنا مِن الجولة قبل الغروب بقليل، تناولنا العشاء وتواصلت الأجواء الاحتفالية بين الجميع، سعدت أنا أيضًا بانتهاء أيام العمل المرهق الذي استمتعت به رغم كلّ تلك الظروف الشاقّة التي أحاطت بنا طوال الوقت، كما كنت أشعر بالرضا عن المواد التي قمنا بتصويرها،

والتي غطت كلّ جوانب السباق، وما مرّ به المتسابقون خلال مراحله المختلفة.

رغم كلّ ذلك أرّقني شعوري بقرب عودتي لذلك الإيقاع الرتيب وتلك الضوضاء، والاختلاط بأناس يملأون العالم بطاقاتهم السلبية المقيتة في كلّ لحظة.

كان عزائي الوحيد هو رؤيتي لـ« لي لي » التي اشتقت لرؤيتها وللحديث معها.

ابتعدت عن المخيم مستمتعًا بذلك الغروب الأخير قبل العودة، جلست وحيدًا على صخرة بعيدة أتأمّل ذلك المشهد المهيب للصحراء المحاطة بتلك الجبال الهائلة البعيدة، والتي تُضفي بهاءً ورونقًا على المشهد بأكمله في تلك اللحظات السحرية المصبوغة بألوان سماوية غامضة تكلل تلك السحب القليلة المتناثرة بهالة برتقالية داكنة.

أخذت أتأمّل تلك اللوحة المذهلة التي أسرت عقلي وروحي تمامًا، يتضاءل كل شيء في هذا العالم أمام ذلك الإبداع الإلهي الطاغي على الكون بأكمله.

يبدو أننا نشعر دومًا بالحنين لتلك الأيام التي عاشها أجدادنا في أزمنة بعيدة، ذلك الحنين الذي ينتابنا دومًا في تلك الأماكن الخالية، حيث يبدو كل شيء أكثر جمالًا وهدوءًا وسكينة، إذ نقترب من أرواحنا، فنبتعد عن ذلك العالم المادي الغارق حتى الثمالة في صراعات لا معنى لها، وأوهام خادعة يعيشها الجميع ويلهثون وراءها طوال الوقت.

منحني المكان شعورًا بالتحرّر مِن كل شيء، راودتني رغبة قوية

في التخلّص مِن كلّ تلك القيود التي صنعتها وأحطت بها نفسي فمنعتني طويلًا من الحياة.

كان استمراري على نفس المنوال بمثابة مضيعة للحياة بأكملها.

سيطر عليّ في تلك اللحظة شعور بأنني يجب أن أفعل شيئًا ما، لم أدرِ تحديدًا ما هو، لكن لا بد أنّ هناك شيئًا ما يمكن فعله قبل أن تغرقني تلك الحياة تمامًا في أعماق سحيقة قد لا أتمكّن من العودة منها أبدًا.

ظللت جالسًا أتابع الليل وهو يسدل ستائره الداكنة على الصحراء مِن حولي كاشفًا عن سماء تستعدّ لنثر لآلئها المتوهّجة البعيدة.

استلقيت على الصخرة متأمّلًا في السماء المليئة بالنجوم المتناثرة، والتي يهوي بعضها بين فترة وأخرى، استغرقني المشهد تمامًا فاستسلمت له دون أن يتوقّف عقلي عن التفكير في كل شيء.

****

« ٤٠ »

كنت بحاجة ماسّة إلى دُش ساخن بمجرد عودتي لإزالة آثار تلك الأيام التي قضيتها وسط الصحراء دون استحمام بالطبع، فلم يكن الماء المتوفّر معنا يسمح بذلك.

أخذت بعده أتفحّص هاتفي الذي فتحته لتوي بعد أن تركته في الشاحن منذ وصولي، كانت الرسائل المعتادة ممن أتوقع اتصالهم بي، لم يلفت نظري سوى تلك الرسالة التي جاءت من رقم مجهول حاول الاتصال بي مرات عديدة خلال اليومين الماضيين، لم يكن الرقم مسجلًا باسم أي شخص فتجاهلت الأمر.

تأكدت مِن وصول «الهارد ديسك» الذي يحتوي على المواد المصوّرة إلى «مازن» الذي أخبرني أنه سيبدأ العمل عليها بعد عدة أيام فور الانتهاء من البرنامج الذي يعمل عليه.

كنت بحاجة ماسّة إلى الاسترخاء، قمت بلف سيجارة جلست أدخنها مصحوبة برشفات من كوب عصير بارد ضخم بجواري، لحظات وبدأ النعاس يغالبني فاستسلمت له، أغمضت عيني للحظات لم تستمر طويلًا.

رنّ الهاتف في إلحاح متواصل انتزعني من تلك الغفوة القصيرة، نظرت في شاشته وأنا لا أكاد أراها، كان رقمًا لا أعرفه فتردّدت في الردّ قليلًا، لكنني تذكّرت تلك الرسالة التي وردت منذ قليل، كان هو نفس الرقم، رددت في تكاسل:

– ألو..

لم أسمع ردًّا من الجهة الأخرى، كررت ردّي في نفاذ صبر، فجاءني الرد كصاعقة أصابت رأسي مباشرة.

– ألو.. إزيك يا «حاتم».

انتزعني الصوت الذي سمعته بقسوة من حالة الاسترخاء التي كنت عليها، أصابتني حالة شديدة من الاضطراب شعرت معها بتسارع نبضات قلبي بشكل مفاجئ.

كان الصوت الذي أتاني من الناحية الأخرى هو آخر ما أرغب فى سماعه فى هذا العالم، صوت نكأ كل جراحى القديمة بقسوة بالغة، كأنه أت من أكثر بقاع الجحيم ظلمة وقتامة.

استنفرت كل حواسي كأنني رأيت شبحًا أمامي، استجمعت كل قواي كي أكبت تلك المشاعر التي باغتتني في تلك اللحظة كي أبقى متماسكًا وهادئًا بقدر الإمكان.

– أيوه.. خير.

– أزيك يا «حاتم».. عامل إيه؟!

– أكيد إنتي مش متصلة علشان تسألي عنّي.. خير، فيه إيه؟!

جاء صوتها مختنقًا ببكاء مكتوم وكلماتها سريعة:

– أنا آسفة يا «حاتم».. علشان خاطري اسمعني.. أنا عارفة إنك هترفض تشوفني، وعارفة إني غلطت، وربنا بيعاقبني.. أنا ماكنتش...

قاطعتها رغبة مني في إنهاء تلك المكالمة بأي شكل:

– أنا مش عايز أعرف عنك حاجة، ولا عايز أسمع صوتك تاني.

اختنق صوتها بالبكاء تمامًا وهي تُكمل في إصرار:

– أنا باموت يا «حاتم».. أبوس إيدك سامحني.. أنا.. أنا عندي «cancer» في العضم.. العلاج نتيجته مش مضمونة، والموضوع اتعرف متأخّر.. أنا عارفة إني غلطت.. عارفة إني آذيتك.. بس علشان خاطري...

اختنقت كلماتها بعد أن غلبها البكاء تمامًا.

كنت أتمنّى قول آلاف الأشياء في تلك اللحظة، كنت أرغب في جلدها بكلمات تمنّيت طويلًا قولها، كان ما بداخلي أبشع مما يمكن التعبير عنه، كانت كراهيتي لها مطلقة، تماسكت بقدر ما استطعت، ساد الصمت لفترة لم يقطعها سوى صوت نحيبها المكتوم، خرجت كلماتي باردة كنصل حاد تمنّيت طويلًا أن أغرسه في رقبتها:

– وفّري أي كلام هتقوليه، مش هيغيّر حاجة، إنتي بالنسبة ليّ موتي من زمان.

استمرّت في بكائها المكتوم وهي تُحاول الحديث:

– أنا آسفة.. والله العظيم آسفة وندمانة.. اللي إنت عاوزه أنا هع...

– أنا مش عاوز حاجة، عايزك بس تختفي، كلامك ده يمكن كان يبقى ليه لازمة في وقت تاني، لو كان ضميرك صحي ومنعك تستمري في حياة مش عارف إزاي قدرتي تعيشيها وإنتي جواكي كل الغدر والوساخة دي، لكن دلوقت ما يلزمنيش.

– أنا مش طالبة منك غير إنك تسامح.. تقبل أسفي.. تـ...

قاطعتها مُسرعًا:

– أنا اللي آسف.. مافيش حاجة أقدر أعملهالك.. ودي آخر مرة هسمحلك إنك تتكلّمي معايا.

– يا «حاتم» أنا...

أنهيت المكالمة قبل أن أسمع باقي جملتها، فلم أكن في حاجة إلى ذلك، كنت مضطربًا للغاية، ارتعشت يدي بشدة مِن فرط انفعالي وأنا أشعل سيجارة لم تكن آلاف منها لتكفي لتهدئتي في تلك اللحظة.

هاجمتني كل تلك الشياطين التي كدت أنجح في هزيمتها مؤخرًا.. هاجمتني بضراوة.. دون أدنى مقاومة منّي.

استعادت ذاكرتي ذلك اليوم البعيد، الذي تغيّر بعده كل شيء، تداعت التفاصيل إلى عقلي بغتة، فقد كان هو اليوم، الذي لا تعود الحياة بعده كما كانت من قبله أبدًا.

****

« ٤١ »

كان يومًا عاديًا مِن أيام حياتي في ذلك الوقت، كنت أقوم بإخراج حلقات برنامج نقوم بتصويره في ديكور تمّ بناؤه داخل إحدى الفيلات في منطقة المقطم، لم يكن العمل لينتهي قبل الواحدة أو الثانية صباحًا، وكانت زوجتي أخبرتني أنها ستخرج بصحبة بعض من صديقاتها لبعض الوقت، عملنا حتى السابعة مساءً وأصيبت المذيعة بحالة من الإرهاق تعذّر معها استكمال العمل، فقرّرنا استكماله في اليوم التالي.
قرّرت أن أفاجئها عند عودتها وقضاء الوقت معها، اصطحبت مدير التصوير في سيارتي كي يأخذ سيارته من منطقة المهندسين، حيث تركها بجوار مكتب الشركة المنتجة للبرنامج.
أصرّ على دعوتي للعشاء، فتناولنا عشاءً سريعًا من أحد محلات الساندويتشات قبل أن ينصرف كلّ منّا إلى حال سبيله.

بعد أن تركته دخلت إلى إحدى محطات الوقود لملء خزان السيارة، كنت أقف مباشرة أمام المتجر الموجود بالمحطة في انتظار انتهاء العامل من وضع ما طلبته مِن وقود.
على بُعد خطوات أمامي رأيتها تخرج مِن باب المتجر بصحبة شخص لا أعرفه، كانت تتأبّط ذراعه وهما يضحكان في مرح بالغ، استقلا سيارة الشاب ثم انصرفا.

أصابني الذهول مما رأيته، كان الأمر واضحًا تمامًا، تحركت بسيارتي ووقفت أمام المتجر، اتصلت بها فردّت عليّ بكلمات الحب المعتادة لتخبرني أنها بصحبة صديقاتها وسألتني عن عملي.. هكذا بكلّ بساطة وحقارة ودناءة.. لم يبدُ على صوتها التردد أو الخوف، كأنها اعتادت الأمر، تُحدّثني أمام عشيقها لتواصل خداعي كأنها لا تفعل شيئًا.

كانت واحدة مِن تلك اللحظات التي ينسج القدر تفاصيلها بحرفية وبراعة بالغتين، ليكتشف المرء في لحظة مدى عبثية وخداع كل ما حوله في هذا العالم، ليدرك فجأة أنه كان يعيش في عالم مِن الأوهام.

انهار كل شيء في لحظة واحدة، ولم أكن بحاجة إلى تفسير لما رأيته.

أغلقت الهاتف في هدوء وعدت إلى المنزل ولم تكن عادت بعدُ، فلم أخبرها بشيء في محادثتي لها، نمت بداخلي رغبة شيطانية في قتلها، ضربة واحدة ستطيح برأسها إلى الأبد، جلست أدخن بشراهة بينما تعبث برأسي آلاف الأفكار، ظللت آمل حتى اللحظات الأخيرة أن أكون واهمًا وأن يكون الأمر اختلط عليّ لا أكثر.

عندما عادت تأكّد الأمر، كانت هي ولم تخدعني عيناي، احتضنتني ببساطة مبدية سعادتها بوجودي، كنت أقف في صمت كتمثال أصم. وشت رائحة أنفاسها بخيانتها، رائحة يعرفها كل رجل جيّدًا، رائحة الخيانة والدنس التي انسكبت بداخلها، كانت اللعينة بين أحضان رجل آخر، وها هي تحتضنني بمنتهى البراءة دون أن يطرف لها جفن.

أخبرتها بهدوء قاتل مخفيًا ما في داخلي من عواصف عاتية بما رأيته، فأنكرت كل شيء، قضى الأمر وأصبح كل شيء منتهيًا، منعني كبريائي مِن الجدال معها، أنهيت الأمر فورًا دون نقاش، عندما أشرقت شمس اليوم التالي كان زواجي منها انتهى دون أن أنطق بكلمة واحدة أمام عائلتها، ودون أن تتراجع هي عن موقفها الصامت والمتعالي الذي تمسكت به بإصرار حتى النهاية ببراعة لا تقلّ عن براعتها في خداعي الذي مارسته بمنتهى المهارة والحرفية، براعة ساحرة شريرة سيطرت عليها شياطينها، لم تكن تدري أن تعويذتها السحرية قد انتهى مفعولها، فبدت دمامتها جلية، ومقززة.

لم أسأل عن أي شيء، ولم أرها ثانية أبدًا.

****

« ٤٢ »

كم تكون الطعنة قاسية عندما تأتي ممن منحناهم كل شيء! أحببتها فلم أرَ امرأة سواها في هذه الدنيا، أخلصت لها إخلاص «آدم» لـ«حواء»، لم أدّخر جهدًا مِن أجل إسعادها مهما كلّفني الأمر.

ائتمنتها على نفسي وحياتي فدهست كلّ شيء تحت نعل حذائها، ولم تشعر بالندم يومًا.

ماتت روحها منذ زمن بعيد فأصبحت تقتات على دماء وكرامة رجل لم يعطها سوى الحب والإخلاص دون أي شروط.

تلبستها روح شريرة ملعونة لا تعترف بأي أحاسيس أو مشاعر، ولا تملك ضميرًا أو وازعًا عن أي شيء.

أتقنت الخيانة بشكل مُذهل كأنها تمرّست على فعلها منذ نعومة أظافرها، كانت ترتكب خيانتها ثم تعود لتلقي بنفسها بكلّ بساطة بين أحضان زوجها الساذج المخدوع.

أصابت طعنتها الغادرة روحي في مقتل، أفسدت كلّ ما بداخلي فأصبح مشوشًا تمامًا، طعنة ربما لم تقتلني، لكنها قتلت بداخلي أشياء لم يعد لإصلاحها سبيل، سكن قلبي خوف هيستيري من أي مشاعر يدرك عقلي أنها قد تخضع لتغيرات البشر وتقلّبات نفوسهم.

أي روح ملعونة سكنتك.. أيّ روح ملعونة؟!

لم أتمكّن يومًا من البوح بما رأيته، أو بحقيقة ما حدث لأي مخلوق، أخفيت أسراري بداخلي دون أن أدرك أنها تتحوّل تدريجيًا إلى ثقب

أسود يلتهم ما تبقي من روحي يومًا بعد الآخر، اندفعت سموم الغدر في عروقي ففقدت الثقة في كل شيء، وقبل كل شيء.. في نفسي.

انعزلت طويلًا ظنًّا منّي أن تلك الفترة المؤلمة ستنتهي يومًا بسلام، استسلمت لعزلتي فحاصرتني أفكار سوداوية لا تنتهي، نسجت خيوطها حولي ببطء وإصرار لا ينتهيان، كأرملة سوداء تغلف فريستها بخيوطها الناعمة لتقتل فيها أي قدرة على المقاومة أو الهرب.

اخترقت روحي وديانًا مظلمة غارقة في مستنقعات آسنة مسكونة بأشباح ملعونة، تسابقت لتسكن رأسي ليلة بعد الأخرى، استقرّت هناك وظلت تعذّبني طويلًا، استسلمت لها تمامًا في بادئ الأمر، قبل أن أبدأ في مقاومتها، كان صراعًا مميتًا خضته وحدي دون أن يُدرك أي ممن حولي ما يدور في داخلي.

شيدت قلعتي الحصينة في مكان ناءٍ عن الجميع، مكثت خلف أسوارها طويلًا محاولًا استجماع قواي لمواجهة العالم مرة أخرى، وعندما عدت إلى الحياة، لم أعد أبدًا مثلما كنت مِن قبل.

****

« ٤٣ »

استعنت بسيجارة ملفوفة أخرى، أكثر غلظة مِن سابقتها أملًا في التخلص مِن آثار مكالمتها التي أيقظت تلك الجحافل الشيطانية السوداء.
فكّرت في «ليليان» دون غيرها، تمنّيت أن أراها أو أتحدّث إليها، أن أرتمي في أحضانها متخلّصًا مِن ذلك العبء الذي أثقل كاهلي طويلًا حتى تمنّيت الموت في وقت من الأوقات كي أتخلّص منه.

كم أتمنّى أن أبوح لها بكل شيء، أن أبكي على صدرها وأنا أخبرها بكلّ ما حدث، لكنني أعرف أنني لن أقوى على فعل ذلك، فلم أعد أسمح لأحد بأن يرى ضعفي أو انكساري، أجدت إخفاء كلّ تلك الأوجاع واحتوائها بداخلي حتى لم أعد قادرًا على كشفها لأحد.
كانت هزيمتي أبشع من أن أكشف عنها أو أعلنها على الملأ، لم يكن هناك أي مجد في الكشف لها عن تلك الجروح، في النهاية لم يصبني بها عدو.
كان ألم الخذلان أقوى من أي شيء، ولم يكن بوحي لها بتلك الهزيمة ليداويني أو يجعلني بحال أفضل.
فليبقَ كل شيء مختفيًا في تلك البقعة المظلمة الخفية حتى النهاية.
أغلقت هاتفي وانعزلت مجددًا عن كل شيء، أغرقت نفسي في سحابات الدخان الأصفر، تلك العصا السحرية التي أسخّر قدراتها للاختفاء عن العالم بأسره، تنسدل من حولي ستائر الوحدة الحالكة فيختفي العالم

ذاته، ولا يبقى هناك سواي.
أسترجع وحيدًا كل تلك الذكريات المريرة التي استحضرتها تلك المكالمة المفاجئة السخيفة.

****

« ٤٤ »

أفقت مع ساعات الصباح الأولى، ربما لاعتيادي فعل ذلك خلال الأيام الماضية، كنت قد نمت مكاني في الصالة طوال الليل.

كان ذهني مشغولا بشكل جعلني أدرك أنني لن أنام مرة أخرى رغم الإجهاد الذي ما زلت أشعر به.

ملأت البانيو بالماء الساخن ورقدت فيه دون حراك أستمع إلى موسيقى «باخ» العذبة، أغمضت عيني مستسلمًا لذلك الشريط المتتابع في رأسي كفيلم سينمائي، مرّت لحظات حياتي معها سريعة خاطفة، تلتها كل تلك الهواجس والأفكار التي كانت تطاردني طوال الفترة الماضية حتى مكالمتها بالأمس.

تصوّرت ما كان يمكن أن يحلّ بي لو أصابها ذلك المرض في أثناء زواجنا، وقبل أن ينكشف لي خداع وزيف تلك الحياة التي كنت أحياها، وقارنت بين ما كان يمكن أن يُصيبني حينذاك وبين مشاعرى الباردة فى تلك اللحظة.

كان يمكن أن يقتلني حادث السيارة، وكان يمكن أن يصيبني ما أصابها، فهو في النهاية مجرد مرض لا يفرق بين شخص وآخر، كان يمكن أن تقتلني وحدتي في تلك الليالي الكئيبة التي قضيتها غاضبًا، غارقًا في كمد وحزن، أتجرّع كؤوس الألم حتى النهاية بلا ارتواء.. ولم تكن هي لتهتمّ بأمري ولو قليلًا، فلماذا يجب أن أهتمّ أنا أو أتأثّر؟!

لماذا ألوم نفسي على ما أصبحت عليه؟!

قمت بعد أن شعرت أن الماء أصبح باردًا، وقفت أمام المرآة متأمّلًا ملامحي، ومقارنًا بينها وبين ما كانت عليه قبل عدة أعوام، كان الزمن يترك بصماته على وجهي دون شك، ربما يتوهّم البعض أنني أصغر سنًّا، لكنني أعرف الحقيقة دون تجميل.

أرى جيّدًا آثار تلك السنوات الضائعة على وجهي، هل هناك أي جدوى مِن كل ما يحدث؟!

ها هو سر جديد يجب أن أكتمه داخلي عمن حولي فلا أبوح به سوى لنفسي، متجنّبًا أي نقاش أو تساؤلات تخصّ ما عرفته عنها أو رد فعلي تجاهه.

شعرت بعبثية الحياة بكل ما فيها.

أدرك جيّدًا أنني تعلّمت الكثير مِن تلك الوحدة التي عشتها منعزلًا عن كل شيء، فمِن الوحدة والألم تنبع قوة تنمو ببطء داخل الإنسان، تجعله يستقبل كل حدث مهما كان بهدوء بارد إلى حد الموت أحيانًا.

لكنني أصبحت كأسد عجوز يظنّ أنه يمكنه مجابهة الحياة وحيدًا إلى الأبد متحصّنًا بقوى لا يدرك إلى متى ستدوم، قبل أن تخذله يومًا ما، وتقتله وحدته رغمًا عنه، دون أن يشعر هو أو يشعر به أحد.

تلك الملامح الصارمة تخفي روحًا مرهقة من عذاب طويل مرهق تلقته في تلك الليالي المظلمة الوحيدة، وقلب شوّهته الوحدة والغضب والألم، فتحوّل إلى قالب مصمت لا تنفذ منه المشاعر.

هل أصبحت روحًا جوفاء بلا إحساس، أم أنني فقط لا أدرك معنى أي شيء؟!

هل أصبحت ببساطة أكرهها بقدر ما أحببتها، وبقدر ما آلمتني طعنتها الغادرة، حتى أعمتني كراهيتي عن الشعور بأي شيء تجاهها في تلك اللحظة.

كيف يمكن للبشر أن يبدلوا بأفعالهم مشاعر الحب المتفاني تجاههم إلى تلك الكتلة الباردة من اللامبالاة.. واللاشيء.

أضلّ كثيرًا الطريق أو لا أتبيّن ملامحه بوضوح، فلا أعرف أين يجب أن أذهب، لم أفعل شيئًا سوى تنفيذ إرادة الله، استجبت لما كشفه لي برفعه تلك الحجب عن عيني، لكنني لا أملك شيئًا تجاه تلك القسوة التي سكنتني رغمًا عنّي، أو تجاه فقدان قلبي لقدرته القديمة على التسامح والغفران.. لا أشعر تجاهها بأي شماتة على الإطلاق، لكنني لا أشعر أيضًا بأي شيء. ما زلت أجهل إلى أين ستمضي بي السّبل، ما زلت أجهل أسباب ما حدث وما سوف يحدث.. كل شيء يبدو غامضًا تمامًا. لا أعلم يا إلهي.. حقيقةً لا أعلم، فالتساؤلات تكاد تفتك بي دون رحمة، كل ما أعيه أنني ربما لم أكن أستحقّ هذا المصير، ربما أكون مخطئًا لكن كيف لي أن أعلم.

أشعر في تلك اللحظة أنني عاجز عن إدراك أي شيء.

أدركني برحماك يا الله.. قبل أن أذهب في طريق لا أتمكّن من العودة منه أبدًا.. أدركني برحمتك.

أطرقت رأسي وأنا أشعر بأنني لا أعرف نفسي، خفت من قسوة أصبحت عليها ولا أعرف مداها، من وحدة أبدية أصبحت تُهدّد حياتي. نظرت ثانية إلى ذلك القناع الصارم..

أدرك تمامًا أنني لا أستطيع إعادة الزمن إلى الوراء، كل ما يمكنني فعله الآن هو الاستمرار في التظاهر بأنّ كل شيء على ما يرام، وأنني ما زلت ذلك الشخص الذي يراه الناس قويًا، مخفيًا أي ضعف أو وهن عن أعين الجميع.

****

« ٤٥ »

في طريقي للعمل لاحظت أنني أصبحت أقود السيارة بطريقة لم أعتدها مِن قبل، طريقة أكثر تهوّرًا وجرأة، شيء ما لا أعرفه عاد معي من تلك الصحراء ولم يغادر.

انتهت الحلقة في ذلك اليوم، وقد لاحظ معظم من حولي شرودي وهدوئي الزائدين في ذلك اليوم، لم ألتفت كثيرًا لملاحظاتهم، فقد شغلني بنهاية العمل أمر ما.

لقد أصبح هذا المكان مرتبطًا بكل الذكريات السيئة في حياتي طوال الفترة الماضية، أوقات كثيرة قضيتها في هذا المكان حاملًا معي كل تلك الذكريات المريرة التي أبت أن تفارقني، لم يعد هناك ركن في هذا المكان لم يشهد لحظة ألم أو تفكير في كل الأحداث المؤلمة في حياتي.

لم يكن وجودي هنا سوى استمرار لتلك الحياة الرتيبة طوال سنوات فقدتها دون جدوى حقيقية.

أصبحت لا أختلف عن أي من تلك الأجهزة الصماء التي تملأ غرفة الكونترول، آتي لأؤدي عملًا بشكل آلي بلا روح أو طموح، حتى وأنا أعرف جيّدًا أنني أشارك في نشر أكاذيب لا تفيد أحدًا، بل تضلل الكثيرين.

عندما عدت إلى المنزل بحثت في الغرفة الثانية المليئة بالوسائد والكتب عن أحد الصناديق حتى وجدت ضالتي.

أخرجت من أحدها ملفًا بلاستيكيًا يحوي رزمة ضخمة من الأوراق لم يمس أغلبها قلمًا.

سحبت مجموعة مكتوبة بخط اليد اعتلت باقي الصفحات البيضاء، تصفحت تلك المشاهد التي كتبتها يومًا، كجزء من سيناريو شرعت في كتابته منذ سنوات ولم أكمله.

أخذت أتصفّح الأوراق وأنا أقرأ ما كتبته في السابق، أنهيت قراءتها بهدوء، أدركت أنني بحاجة إلى إعادة كتابتها مرة أخرى، والبدء في الأمر برمته من جديد.

أعدت جميع الأوراق إلى الملف ثانية، وقد قررت أن أحاول البدء في الكتابة مجددًا، لكنني رغم ذلك شعرت بضرورة إعادة صياغة الأمر في رأسي قبل أن أشرع في الكتابة مرة أخرى.

****

« ٤٦ »

لم يتشابه أي من الأيام التي التقيت فيها «لي لي» مع الآخر، كنا كلما ذهبنا إلى مكان ما شعرت أنني أستردّ جزءًا جديدًا من روحي، كان مرحها وانطلاقها يُصيبانني بسعادة مبهمة لا أدرك كيف تنقلها إلى بتلك السهولة، بل لا أعرف كيف تملك تلك القدرة على إسعاد من حولها بتلك البساطة والعفوية رغم كل ما يسكنها هي الأخرى من آلام.

في ذلك اليوم لم تخبرني للمرة الأولى عن المكان الذي قررت اصطحابي إليه، وكان الأمر مفاجئًا لي تمامًا.

التقينا كما طلبت عند مدخل مدينة الشيخ زايد القريبة مني، أخبرتني أننا سنذهب إلى مكان تأتي إليه كثيرًا، كان نفس المكان الذي ذهبت إليه قبل لقائنا المفترض يوم الحادث.

سرت وراء سيارتها حتى توقّفت أمام منزل ما، دخلنا إلى شقة تحتل الطابق الأرضي بالكامل، قطعنا ممرًّا قصيرًا يخترق حديقة حتى وصلنا إلى الداخل.

كان المكان دارًا للأيتام اعتادت هي زيارته، وقضاء الوقت مع الأطفال الموجودين به كل فترة، استقبلها الأطفال بترحاب وفرحة غامرة، كان يبدو أنهم يعرفونها منذ فترة طويلة، كانوا نحو أربعة عشر طفلًا وطفلة، لا يزيد عمر أكبرهم على السنوات العشرة.

شعرت في البداية بارتباك شديد، لكنها أخذت تقدمني لهم، بعد قليل زالت رهبتي وأنا أرى تفاعلهم معها، واقترابها منهم وحماسها الشديد

كأنها طفلة صغيرة عثرت على أصدقائها بعد طول فراق.
كانوا فرحين للغاية بالهدايا والمأكولات التي جاءت بها معها، بعد قليل وجدتني ألعب مع الأولاد بالكرة في الحديقة الأمامية، وقد خلعت حذائي واندمجت معهم تماما، قبل أن تقرر الفتيات الانضمام إلينا بقيادة «لي لي»، تحوّل الأمر إلى فوضى عارمة لذيذة، تعالت ضحكات الأطفال من حولي وهم يجرون خلف «لي لي» التي أمسكت بالكرة وظلت تجري بينهم، وعندما حاصروها ألقت بها لي، فتحوّل الهجوم ناحيتي وحوصرت أنا الآخر.
بشكل مذهل تناسيت كل ما يدور بداخلي، ولم أشعر سوى بتلك النبضات الفرحة التي كانت تصدر من وجوه هؤلاء الأطفال، كأن المكان تحلق فوقه الملائكة فتمحو أحزان وهموم الموجودين.
بعد تناولهم للغداء الذي طلبته لهم «لي لي» من أحد المطاعم التي يحبونها، جلست وسطهم تقرأ لهم إحدى قصص الأطفال.
تأملتها وهي تجسد بصوتها وملامحها مختلف الشخصيات في القصة متقمصة أدوارهم، بينما لايستطيع الأطفال تحويل أنظارهم عنها، كانت بديعة في كل شيء، لم تكن مصدرًا للسعادة لي فقط كما ظننت، بل كانت كذلك بالنسبة إلى الكثيرين.
تأملت هؤلاء الأطفال وشعرت بالغضب ممن تخلوا عن تلك الزهور البريئة، ملقين بهم إلى مجهول دون أي ذنب جنوه.
هممنا بالانصراف فتحلق الأطفال حولنا والدموع تنهمر من أعين البعض منهم، أخذنا نقبلهم ونعدهم بعودة قريبة، وقفت إحدى الفتيات أمامي بعناد وهي ترفض مغادرتي، كانت طفلة لم يتعدّ عمرها الست سنوات،

وقفت تنظر لي بعينيها الواسعتين رافعة رأسها كأنها تنظر إلى مارد عملاق، انحنيت وحملتها برفق، فاحتضنتي بقوة طفولية منحتني إحساسًا غامرًا بسعادة لم أعهدها من قبل، مالت برأسها إلى الوراء وهي تنظر لي وتحيط وجهي بكفيها الصغيرتين، اقتربت من أذني هامسة وهي تحرص على ألا يسمعها أحد:

– أنا عاوزة أتجوّزك يا عمو..

لم أتمالك نفسي من الضحك عاليًا وأنا أقبلها محتضنًا إيّاها:

– عاوزة تتجوّزي عمو؟! بس عمو كبير أوي وإنتي لسه صغيرة.

– ما إنت هتستناني لمّا أكبر..

نطقتها ببراءة كأنه شيء بديهي.

التفتت «لي لي» لحديثنا فاقتربت ضاحكة:

– واضح إن فيه حاجات بتحصل هنا من ورايا.

احتضنتني الصغيرة بمجرد اقتراب «لي لي» بغريزة أنثوية كأنها تعلن امتلاكها لي دون غيرها.

رددت مازحًا:

– لو سمحتي ما تتدخليش بينا.

انطلقت ضحكتها المبهجة عاليًا:

– والله! ماشي يا عم الله يسهله.

مازحتنا بينما لا تزال الطفلة متشبّثة بعنقي وقد أدركها الخجل.

همست في أذنها قبل أن أودعها:

– لما تكبري هتبقى عروسة زي القمر، هنبقى نشوف بآه ساعتها لسه

عاوزة تتجوّزي عمو، ولا هتغيّري رأيك.

انصرفنا وأنا أشعر بسعادة غير عادية، كانت «ليليان» تكشف لي عن مصادر للسعادة لم أكن أتصوّرها من قبل، وكانت تبدو هي مختلفة في كل مرة أراها عما قبلها.

لم يخطئ من قال أن منح السعادة للغير هو أهم طريق للحصول على تلك السعادة ذاتها.

لم تكن بحاجة بالطبع إلى سؤالي عن مشاعري، فقد كان ما أشعر به باديًا على ملامحي طوال اليوم.

****

« ٤٧ »

ذهبنا للجلوس في أحد الكافيهات لقضاء ما تبقى من وقت قبل أن أذهب إلى عملي وتعود هي إلى منزلها.

يبدو أنها لاحظت عليّ شرودًا لم أقصده.

– مالك يا «حاتم».. فيه حاجة مضايقاك؟!

لعلّي كنت أفكر في البوح لها بكل شيء كي أتخلّص من ذلك العبء الذي حملته وحدي طويلًا، قتلت تلك الرغبة في مهدها سريعًا وأنا أهزّ رأسي نافيًا.

– بالعكس.. إنتي مش متخيلة اليوم ده عمل إيه جوايا.

– عارف المشكلة إيه؟ إنك مش بتتكلم عن اللي جواك ده، دايمًا بابقى حاسة إن فيه جواك حاجة مش عايز حد يعرفها، لحد إمتى هتفضل خايف منّي؟!

– خايف منك؟! أنا مش خايف منك يا «لي لي»، أكيد إنتي حاسة إني باتكلم معاكي في كل حاجة، وباحكيلك عن كل حاجة.

– أنا مش باتكلم عن الحاجات اللي بتقولهالي أو اللي بتحصل في شغلك، دايمًا عندي إحساس إن فيه حتة جواك مش عاوز حد يقرب منها، عنيك دايمًا بتقول كده.

حاولت الهروب من ذلك الحديث قدر المستطاع قبل أن تنهار آخر حصوني وأعلن استسلامي التام.

– خلاص يا ستي، ابقى اسألي عنيا اللي بتقولك على حاجات من ورايا دي.

ابتسمت ابتسامة هادئة وهي تنظر لي كأنها تخبرني أنها متأكّدة مما تقوله:

– أنا مش هضغط عليك علشان تقول حاجة إنت مش عاوز تقولها، بس يوم ما تحب تتكلم، إنت عارف كويس إني هسمعك.. كأنك بتكلّم نفسك.

هززت رأسي وأنا أربت على يدها.

– عارف.

أفلحت في المقاومة هذه المرة ومرّ الأمر بسلام، لكننى لا أعرف إلى متى سأظلّ صامدًا قبل أن أنهار أمامها.

قبل أن نفترق طلبت مني أن أحتفظ بمفتاح شقتها كي أذهب لرعاية قطتها الصغيرة في أثناء غيابها، وافقت بعد إلحاح منها، فلم أكن قد اعتنيت بأي حيوان أليف في حياتي من قبل، لكني لم أملك أمام إصرارها ورغبتها في الاطمئنان على «ميشا» سوى القبول.

كنت سأنشغل في الأيام التالية بمونتاج حلقات السباق مع «مازن»، أخبرتني أنها ستترك «ميشا» هذه المرة عند «شاهندة»، لكنها قد لا تتمكّن من فعل ذلك كثيرًا لانشغالها هي الأخرى، لم نلتقِ حتى سفرها، وكالعادة أصبحت أفتقد وجودها.. دون أن أبوح لها يومًا بذلك.

****

« ٤٨ »

لدهشتها لم تكن في حاجة إلى أن تلح عليّ في الذهاب معها إلى ذلك الحفل الخاص الذي كانت تقيمه صديقة لها في إحدى الفيلات القديمة بمنطقة الدقي بمناسبة عيد ميلادها، فقد وافقتها دون تردّد.

لربما ترددت كثيرًا في السابق قبل أن أوافق على حفل كهذا، بل لربما رفضت الذهاب من الأساس، ولكن شيئًا ما حدث لي جعلني أشعر أنني أكثر تحررًا واندفاعًا عن ذي قبل.

كنت أعرف أنني سأتواجد وسط أشخاص كثيرين لا أعرفهم، وربما يصغرونني جميعًا في السن، لكنني لم أبالِ.

فرحت للغاية عندما وافقتها دون إلحاح منها على الذهاب معها، وكانت سعادتها تكفيني.

ذهبت لاصطحابها من منزلها، كانت فاتنة كعادتها رغم أنها لم ترتدِ سوى بلوزة واسعة ملوّنة تكشف أحد كتفيها قليلًا وبنطلون جينز ضيق، كان مظهرها بسيطًا وأنيقًا في الوقت ذاته.

لم يكن المكان بعيدًا عن منزلها، كانت إحدى الفيلات القليلة التي ظلت شاهدًة على عصر قديم من الأناقة والجمال، وذلك قبل أن تزحف العمارات الضخمة على المنطقة كديناصورات عملاقة تلتهم تدريجيًّا ما تبقّى من فيلات مات أصحابها، واستسلم ورثتها لإغراء المال فباعوها لمقاولين لا يُدركون قيمة تلك الكنوز، ولا يهمهم سوى ما يجنونه من ربح، لترتفع بناياتهم الضخمة العالية على أنقاض مبانٍ هي في الأساس

ثروة تاريخية كان يجب الحفاظ عليها.

عند الباب الخارجي كان يقف «بودي جارد» ضخم الجسد بشكل مذهل، يتأكّد من وجود أسماء الداخلين إلى الحفل على ورقة كبيرة يحملها معه، قبل أن يفسح لهم باب الدخول الذي يسده بجسده الهائل، حرصًا على إبعاد المتطفلين أو مَن لم توجّه لهم الدعوة.

عبرنا الساحة الخارجية التي يبدو أنها كانت حديقة واسعة في أيام بعيدة مضت، حتى وصلنا إلى الداخل.

بمجرد دخولنا بحثت «لي لي» عن صديقتها لتهنّئها بعيد ميلادها، ثم قدمت لها الهدية التي جلبتها ، وزجاجة الويسكي التي أحضرتها مجاملة لها.

عرفتني على صديقتها التي قابلتنا بترحاب ثم استأذنت داعية إيانا للاستمتاع بالحفل.

كان المكان شبه خالٍ من الأثاث حيث كان من الواضح أن الفيلا يتم تأجيرها لمن يرغب، لم يكن هناك سوى بار ضخم، وبعض المقاعد الضخمة اللينة المعروفة باسم «حقائب الرمال» موزعة في أرجاء المكان، وعدة مناضد عالية هنا وهناك يتحلق حولها بعض المدعوين، بينما توزعت في أركان المكان سماعات ضخمة تبثّ تلك الموسيقى التي لم تتوقّف لحظة.

تفرّق المدعوون في جماعات متناثرة في المكان، تباينت أعمارهم ومظهرهم بشكل ملحوظ، مجموعات من الشباب والفتيات، وأخرى تضمّ رجالًا ونساء يبدون أكبر سنًّا، وأكثر رزانة، مجموعات أخرى تضمّ فتيات أجنبيات بصحبة رجال مصريين أو أجانب.

كان الجميع منشغلًا بمن حوله ممن يعرفهم، يقف البعض في مجموعات لتبادل الحديث، ويرقص البعض الآخر على أنغام الموسيقى التي تملأ المكان دون ضجيج، وآخرين يسيرون فرادى وهم يحملون كؤوسهم ويتنقلون بين مجموعة وأخرى.

عرفتني «لي لي» على العديد ممن تعرفهم، ولم تفارقني معظم الوقت، بين مجموعة وأخرى تباينت موضوعات الحديث، من السياسة إلى الأدب إلى الفنون، تناولنا عدة كؤوس قبل أن أشعر أنني في حاجة إلى بعض الهواء النقي بعد أن امتلأ المكان بدخان شكل سحابة تحوم فوق رؤوسنا.

خرجنا معًا إلى التراس الواسع، لم نكن هناك وحدنا، فانزوينا في ركن هادئ.

أمسكت بيدي وهي تنظر لي قبل أن تسألني:

– مبسوط؟!

– لو ماكنتش مبسوط ماكنتش قعدت، المهم إنتي تكوني مبسوطة.

– أنا بابقى مبسوطة في أي مكان معاك.

كنت أدرك أنها ثملة قليلًا مما قد يدفعها للبوح بأشياء قد لا أملك ردًّا عليها، أوربما كنت أخشى الردّ .

نظرت لها مبتسمًا وأنا أخشى أن أنطق بشيء لا أدري عواقبه.

أحاطت ذراعي بيديها الاثنتين وأسندت رأسها على كتفي وسكنت في هدوء.

لم أكن أرى في نفسي ما يستحق إعجاب حسناء بهذا الجمال والشباب، مجرد كهل بائس وحيد ملأته الذكريات السوداء حتى لم يعد قادرًا على تذكر كيف كان من قبل، أو كيف أراد أن يكون، لم يعد يصلح للحب منذ أصاب قلبه عطب لا يعرف سبيلًا لإصلاحه، لكنني أيضًا لم أملك القدرة على الابتعاد عنها، أو قطع علاقتي بها.

كان الأمر أشبه بمتاهة أحاول التوصل لسبيل للخروج منها طوال الوقت، وكلما توغلت فيها ازداد الأمر تعقيدًا وإرباكًا.

حضرت صاحبة الحفل وأخذت «لي لي» تحادثها على بُعد خُطوات منّي، لم أكن أسمع ما تقوله لها، لكني لاحظت تغيّر ملامحها واضطرابها، أخبرتني أنها ستتركني للحظات وذهبت إلى الداخل.

مرّت لحظات قبل أن يساورني القلق عليها، فذهبت إلى الداخل لاستطلاع الأمر والاطمئنان عليها.

****

« ٤٩ »

كان المكان قد أصبح أكثر ازدحامًا، بحثت عنها في أرجاء المكان، كانت تقف في ركن بعيد مع شخص لم أره في المكان منذ وصولنا، كان من الواضح أن أمرًا ما يحدث.

كانت «لي لي» محتدة في حديثها بشكل لم أعهده فيها من قبل، أنهيت ترددي واتجهت إليها، لم يستغرق ما حدث بعد ذلك سوى ثوانٍ قليلة في أثناء اختراقي صفوف الموجودين من أجل الوصول إليها.

لم يكن ما يحدث يلفت انتباه أحد من الموجودين سواي، في طريقي إليها رأيت الشاب الذي كانت تتحدّث إليه يجذبها من ذراعها بعنف، وملامحه يبدو عليها الغضب، صفعته «ليليان» على وجهه فردّ لها الصفعة بعنف، انتبه الموجودون لما يحدث بعد فوات الأوان.

انتفضت عروقي من أثر الأدرينالين الذي اندفع داخلها بشدة، شعرت بالدماء الساخنة تلهب جسدي بشكل مفاجئ يُنذر بالخطر.

نظر لي الشاب وهو لا يفهم شيئًا، وقبل أن يهم بالحديث كان قد تلقّى لكمة عنيفة مصوبة بدقة، ترنّح بعدها إلى الخلف قبل أن يسقط والدماء تندفع من أنفه بغزارة.

أمسكت «ليليان» بذراعي كي تمنعني من الفتك به، التفت خلفي ناظرًا للموجودين والشرر يتطاير من عيني دون قصد مني، تمنيت أن لا يقترب مني أحد في تلك اللحظة حتى لا يزداد الأمر سوءًا، فقد انفجر بداخلي بركان من الغضب كان مستعدًا للإطاحة بالجميع، غضب ظلّ

كامنًا بداخلى طويلًا، لكنني لم أكن قادرًا على السيطرة عليه في هذه اللحظة.

انفتحت بوابات الجحيم على مصراعيها.. أفلتت منها شياطين عابثة.. أخذت تتقافز أمام عيني في مرح لعين، فلم أعد أرى سوى شرر نيرانها المتطاير في أرجاء المكان بأكمله.

لحسن الحظ لم يحاول أحدهم فعل شيء فقد كان واضحًا للجميع أن الشاب نال ما يستحقه، وأنني لن أتوانى أيضًا عن فعل أي شيء لو حاول أحدهم التدخل.

التفت بغضب للشاب الذي كان ما زال يحاول دون جدوى إيقاف الدماء المندفعة من أنفه، أمسكت «ليليان» ذراعي بقوة وأخذت تجذبني للخارج وهي تبكي، أخذتها وانصرفنا دون أن أنطق بكلمة مع أحد.

****

« ٥٠ »

لم تتوقّف في أثناء عودتنا عن البكاء، أخبرتني من بين دموعها أنه ذلك الشاب الذي ارتبطت به لفترة بعد طلاقها، أقسمت لي إنها لم تكن تعلم بحضوره، عندما عرف بوجودها في الحفل طلب التحدّث إليها، وعندما نهرته بسبب محاولته تلك تطاول عليها فلم تتمالك نفسها من الغضب، وحدث ما حدث.

لم تكن في حاجة لتبرير أي شيء لي، فقد كنت أشعر بالحنق لما حدث معها في وجودي، كنت أشعر أنني مسؤول عنها، ولم أتوقف عن لوم نفسي على تلك اللحظات التي تركتها فيها ليحدث لها ما حدث، وأنا على بُعد خُطوات منها.

أخذت أهدّئ مِن روعها بقدر الإمكان.

– تحبّي تروحي أي حتة؟!

هزّت رأسها في حزن.

– مش قادرة يا « حاتم »، مش هاقدر أقعد في أي مكان.. بس من فضلك ماتسيبنيش.

كانت في حالة لم أرها عليها من قبل، فلم أرفض طلبها، صعدنا إلى شقتها، وكانت واجمة تمامًا بينما انهمرت دموعها الصامتة دون توقّف.

****

« ٥١ »

جلسنا في صالة شقتها التي احتفظت فيها بذلك الأثاث القديم منذ وفاة والدتها، كان المكان منظّمًا وأنيقًا، يمنح الأثاث القديم المكان إحساسًا بأناقة عصور مضت، وبالطبع أضفت هي بعض اللمسات الحديثة هنا وهناك فأصبح المكان ممتعًا بشكل فريد وغير مألوف.

ذهبت إلى التواليت لتغسل وجهها، وتزيل عنه آثار المكياج الذي فسد بسبب بكائها.

عندما عادت كان معها طبق فارغ، أخرجت من حقيبتها كيسًا صغيرًا يحتوي على مسحوق أبيض أفرغت محتوياته في الطبق.

– إيه ده يا «ليليان»؟!

قلتها في ذهول وأنا أشاهد ما تفعله.

– .. كوك.

– ليه؟!

– «حاتم».. أنا مش مدمنة، إنت معايا على طول، دي كمية قليلة خدتها من «فيكي»، أنا ماكنتش هاعمل كده من وراك، أنا كان ممكن أضربه وأنا لوحدي، بس أنا مش باخبّي عليك أي حاجة.. أنا النهارده فعلًا محتاجة ده.. لو ما وافقتش هاقوم أرميه قدامك.. بس أنا...

غلبتها دموعها مرة أخرى، شعرت بالقلق عليها، لكنني لم أكن في موضع أرغب فيه في تقمّص شخصية الرجل العاقل تمامًا، ألا أغرق نفسي كل يوم في سحابات الدخان ساعيًا للهرب مما حولي؟!

لست بأفضل منها بأي حال من الأحوال، فكلّ منا يختار طريقه للهرب، دفعني إحساسي بصدقها معي للقبول بالأمر فلم أكن أريد أن أزيد من قسوة الليلة عليها، كما أنها كان يمكن أن تخفي عنّي الأمر وتفعل ما تريد وقتما تريد، وهذا سوف يكون أخطر بكثير.

كانت الكمية قليلة بالفعل، نظرت لها بعد أن تركت الورقة المالية التي استخدمتها لسحب المخدر ومالت برأسها إلى الوراء، أمسكت بالورقة المالية، لففتها بإحكام، وسحبت ما تبقّى على الطبق وسط دهشتها وذهولها.

– ليه يا «حاتم».. ليه عملت كده؟!

قالتها بصوت متحشرج في قلق، تذكّرت تلك النبرة التي سمعتها من قبل عندما تحدّثنا في الهاتف للمرة الأولى، ولم أسمعها مرة أخرى.

– لو فعلًا مش ناوية تخبّي عليّ، يبقى خليكي عارفة إنك كل ما تعملي كده، هاعمله أنا كمان معاكي، وما افتكرش إنك عايزاني اتعوّد على حاجة زي دي، ولا ناوية أكيد تكدبي عليّ.

هزت رأسها نفيًا بعنف وهي تنظر لي نظرة لم أرَها في عينيها من قبل.

لم أعرف حتى كيف أقدمت على فعل ذلك بتلك الجرأة المتناهية، لكنني أردت لهذا الأمر أن ينتهي من حياتها بأي شكل من الأشكال، وكنت على يقين أنها لن تكرره ثانية لو أدركت أنه سوف يُؤذيني.

شعرت بأثره يتسلل سريعًا إلى رأسي مما أثار قلقي وترقّبي فجلست هادئًا أدخن، جلست بجواري، كانت على وشك البكاء ثانية.

– أنا آسفة إني خليتك تعمل كده.. بجد آسفة.

أشاحت بوجهها بعيدًا، ربت على يدها فنظرت لي ثانية، خرج صوتها باكيًا:

– أنا تعبت، تعبت إني أمثّل إني كويسة طول الوقت، تعبت من كل حاجة، أنا محتاجالك يا «حاتم».

ألقت برأسها على صدري، أسكرني عطرها، شعرت بحرارة تدب في عروقي، بينما كان المخدر يضرب رأسي بقوة، ويشعرني بدوّار خفيف، أخذت أربت على رأسها لتهدئتها متجاهلًا تلك الرغبة التي اشتعلت بداخلي كإعصار هائل بدأت بوادره تُنبئ بدمار مخيف سيُطيح بكل شيء ، تماسكت بقدر الإمكان وقررت الانصراف، رفعت رأسها ونظرت لي بعينين دامعتين، لا أدري أقبّلتني هي أم قبّلتها أنا.

انهارت كل الحصون دفعة واحدة كأن لم تكن، لم يبقَ منها شيء أمام جمال «ليليان» وفتنتها التي فاقت كل تخيّلاتي بجسدها الممشوق المبدع في تفاصيله وبشرتها البيضاء الناعمة، وملامحها الفاتنة التي زادتها النشوة سحرًا يفوق السحر ذاته إعجازًا.

وجدت نفسي فجأة في الخلاء أمام من لا قِبل لي بأنوثتها الطاغية.

بدت لى وكأنها آلهة جمال إغريقية قد يتصارع من أجلها أرباب آلهة الأساطير في معركة ملحمية أبدية، ناقضين كل عهودهم وتحالفاتهم القديمة، من أجل الفوز برضا ربّة السحر والدلال، ومانحة الأنوثة والفتنة لنساء العالم أجمعين.

فتحت لي أبواب معبدها المسحور، معبد خفي غامض يسلب عقل كل مَن يطأه بقدميْه، ولن يفعل إلا بدعوة تمنحها هي لمن تختار فلا يملك لها ردًّا، منحتني رحيقًا مقدّسًا وسط طقوس ملتهبة بنيران انتظرت آلاف

السنين كى تتوهج، حلقت بي إلى آفاق لم أظن أنني بالغها يومًا، حررت روحي تمامًا من أغلالها السوداء المخيفة التى أحاطت بها طويلًا حتى كادت تسلبها الحياة تمامًا.

اختفى كل شيء من حولنا، التحمت نيراننا وارتفعت ألسنتها عالية، حتى أضاءت تلك الشعلة القديمة أعلى معبدها المسحور فانبعثت الحياة في كل ما حوله بعد سبات أبدى.

لم يكن هناك غيرنا، وكون يرقب في صمت تلك اللحظات المهيبة.

التحمنا في نوبات متتالية من العشق المجنون، تفوق كل منها سابقتها ضراوة وجموحًا.

وكأنني لم أعرف يومًا معنى العشق.

لم يدرِ أحدنا أو يتذكّر كيف نمنا أو متى توقفنا.

لماذا لا يمر العمر بأكمله كتلك اللحظات بين ذراعيك يا «لي لي»، فلا نشعر بألم أو بحزن!

****

« ٥٢ »

استيقظت في منتصف اليوم التالي بصعوبة بالغة على صوت الهاتف المحمول منبهًا إياي بضرورة الذهاب إلى العمل.

أسكته سريعًا قبل أن يقلقها، ظللت أتأمّلها لبعض الوقت وهي نائمة، كانت فاتنة كعادتها دائمًا، قمت بهدوء محاولًا التغلب على ذلك الدوار المفاجئ الذي أصابني، وذلك الثقل المحيط برأسي وكامل جسدي.

وقفت تحت الدش البارد الذي تمنّيت أن يجعلني أفضل حالًا، استحوذت الليلة الماضية على كل حواسي، شعرت بالحياة تدبّ فيّ بشكل لم أعهده من قبل، بعثت لمساتها الحياة في جسد كاد ينتهي أمره، وروح كنت قد ظننتها ذبلت إلى الأبد.

استمتعت دون شك بكلّ لمسة منها، تمنيت لو أمكنني البقاء بين ذراعيها إلى الأبد، ملقيًا برأسي على صدرها حتى تختفي حدود العالم، ولا يبقى منه إلا رحيق فتنتها الساحرة التي تسلب العقول.

أغمضت عيني مستسلمًا لقطرات الماء المنهمرة فوق رأسي دون أن تتمكّن ولو للحظة واحدة من السيطرة على تلك الحرائق المشتعلة بداخلي.

ذلك السقوط المفاجئ لن يمرّ دون عواقب وخيمة لم أكن أتمنّاها أبدًا.

أعرف أنني لم أسعَ للأمر، لكنني لم أملك أيضًا القدرة على المقاومة، ولن أنكر أبدًا أنها منحتني شعورًا لم أعرفه من قبل، لو تمكنت لاحتفظت به إلى الأبد، فليكن الأمر كذلك الآن ولو للحظات على الأقل، فسوف

تأتي العاصفة لا محالة، ولن يُؤخّرها قلقي.
لماذا خلقك الله بهذا الجمال، وتلك الفتنة يا «ليليان»؟!
رغمًا عني ملأني إحساس بالخوف من مجهول، ومشاعر متصاعدة من القلق تجاه علاقة أخشى أن أكون أفسدتها بما حدث.
ألحّ عليّ ذلك الهاجس السخيف، وأنا أتخيّلها لم تتخطّ الأربعين عامًا، وبجانبها عجوز يقترب من الخامسة والخمسين من عمره، حتمًا لن أكون بتلك القوة التي أملكها الآن، ولا ذلك المظهر الخادع الموحي بحيوية لن تبقى إلى الأبد.
لا أستطيع أن أفكّر في ما أتمنّاه فقط، تتداعى داخل عقلي كل التفاصيل دون إرادة مني، كنت أفكّر فيها أكثر مما أفكّر في نفسي، كنت أتمناها دون شك، لكنني أيضًا لا أتمنّى لها الحياة مع رجل تسكنه كل تلك الآلام ويؤرّقه ماضٍ ترفض أشباحه الرحيل في سلام.
لم يكن الأمر بيدي، يستحضر عقلي كل الاحتمالات في القادم من الأيام بشكل محموم، فلم يعد ما تبقى منها يسمح لي بأن أفكّر في الحاضر فقط دون أن أنشغل بما سيأتي في المستقبل.
تمنحنا الحياة أحيانًا أسرارها وقتما تريد، وليس وقتما نريد نحن، ما هذا الجحيم يا الله؟!
خرجت وأنا أشعر بحَيرة وقلق لم أتمنَ أبدًا أن يشوبا علاقتي بها.
أعددت لها إفطارًا وكوبًا من العصير، لم أرد إيقاظها، جلست بجوارها أتأمّلها مرة ثانية، تركت لها رسالة باضطراري للذهاب إلى العمل، قبّلتها ورحلت في هدوء.

عندما خرجت إلى الشارع شعرت بأنني كنت في حُلم جميل، انتزعني منه الواقع بيد غليظة قاسية تأبى أن تدعنا نعيش طويلًا في تلك الأحلام الخيالية السعيدة التي تنأى بنا عن قبحه وفجاجته، وأعادتني بقسوة مؤلمة إلى أسره القاتم الكئيب.

****

« ٥٣ »

للمرة الأولى منذ التقينا أصبحت الأمور خارج سيطرتي تمامًا، كنت أدرك أنني يجب أن أتدارك ما حدث بسرعة قبل أن يتحوّل ذلك الحلم الجميل إلى كابوس مزعج لها، أو جرح جديد يضاف إلى قائمة جروحها القديمة، حيرة شغلتني عن تلك السعادة التي منحتها لي، وعجز عن التفكير في أي شيء، لم أكن أستطيع خداعها ولو للحظة واحدة، لكنني أيضًا كنت أفضّل الموت على أن أكون سببًا في إيذائها بأى شكل كان، ليس بعد كل ما فعلته معي ومن أجلي.

حسمت أمري بضرورة لقائها في نفس اليوم بعد انتهاء عملي، يجب أن أتحمّل النتائج كاملة، وأن أحاول إصلاح ما أفسدته، يجب أن يكون حديثي معها مباشرًا وواضحًا.

لم يعد شرودي بجديد على طاقم عمل البرنامج خلال الفترة الأخيرة، لكنني للمرة الأولى يغلبني ذلك الشرود حتى بدوت مرتبكًا في أثناء الحلقة، عهدت لـ« محمد » باستكمال الجزء الأخير منها متعللًا بشعوري بالإرهاق بعض الشيء، مرّ الأمر بسلام، لكنني لم أعرف إن كان الأمر الأهم سوف يمر هو الآخر كذلك، أم أنني سوف أفسد كل شيء.

****

« ٥٤ »

انتظرتها في نفس المكان الذي كان سيشهد لقاءنا الأول في ذلك اليوم الذي جعل علاقتنا تتخذ مسارًا غير متوقّع على الإطلاق.

كنت أجلس بهدوء ظاهري بينما تعتمل بداخلي عواصف وأعاصير لا يدرك أي ممن حولي مدى هولها، ظللت أدخّن دون توقّف حتى جاءت، اقتربت باسمة وجلست أمامي بهدوء، أزال وجودها ورقتها الكثير من التوتر بداخلي، ولو بشكل مؤقت.

– وحشتني.

قالتها وهي تنظر لي بتمعّن أعاد قلقي بشكل كامل.

– وإنتي كمان.

خرجت منّي بهدوء، وأنا أنظر لها بدوري محاولًا سبر أغوارها دون فائدة.

لاحظت بسهولة أن شيئًا يعترم بداخلي، لكنها حافظت هي الأخرى على هدوئها، وابتسامتها الحانية.

– مالك؟

تنهدت بعمق وأنا أنظر بعيدًا، قبل أن أرغم نفسي على العودة لمواجهتها.

– .. محتاج أتكلّم معاكي، ومحتاج إنك تسمعيني كويس.

– اتكلّم يا « حاتم »، إنت مش محتاج تطلب مني إني أسمعك كويس، فيه إيه؟!

– « ليليان » .. أنا آسف وباعتذرلك عن اللي حصل إمبارح .. أرجوكي

تسامحيني.

– آسف؟ وبتعتذرلي؟ مش فاهمة.

– «ليليان» إنتي فاهماني كويس.. أنا مش عايز أخسرك، ولا عايز أكون سبب في أي جرح ليكي، أنا عارف إني ماكانش ينفع أبقى ضعيف، أو أحاول أبرر استسلامي للي حصل.. بس..

بدا عليها القلق وهي تُمسك بيدي بشكل بدا لي عفويًّا للغاية:

– «حاتم».. إنت عاوز تبعد عنّي؟!

– لأ.. أنا جاي هنا وباتكلّم علشان مش عايز أبعد عنك.. بس وبعدين؟!

بدأ التوتر يكسو ملامحها.

– إيه هو اللي وبعدين.. «حاتم» أنا كمان آسفة، بس أرجوك ما تخدش أي قرار دلوقتى، أنا كمان ماكنتش أقصد، بس أنا عارفة كويس إنه كان غصب عننا إحنا الاتنين.

– مافيش حاجة اسمها غصب عننا، أنا...

قاطعتني بانفعال حاولت السيطرة عليه كي لا يعلو صوتها:

– ممكن تديني سبب واحد يخليك تفضل معذّب نفسك بالشكل ده ومصمم تبقى لوحدك؟! «حاتم» أنا بحبك.. كنت مستني أقولهالك؟! أديني قلتها.. ممكن تقولي سبب واحد يخلينا ما نبقاش مع بعض؟!

– ممكن تديني إنت سبب واحد يخليكي تحبّي أو تبقي عايزة ترتبطي بواحد زيي؟!

– ممكن أديك أسباب كتيرة أوي، كل يوم من ساعة ما عرفنا بعض سبب، كل الفترة اللي فاتت بكل اللي حصل فيها سبب، إنت ليه دايمًا

خايف؟! خايف تبين لي مشاعرك أو تعرّفني اللي جواك.
أشحت بوجهي بعيدًا وأنا أجيب بداخلي عن كل تلك التساؤلات دون أن أتمكّن من البوح أمامها بشيء.
أحسست في تلك اللحظة بضعف غير مسبوق، كنت أشعر أمامها كطفل يتوق للارتماء في أحضان أمه ملتمسًا الأمان، كي يبكي بحرارة معترفًا بكلّ ما فعله، مطمئنًا لرفقها به رفقًا يفوق ويغفر ما اقترفه من أخطاء وحماقات.. لكنني لم أقدر على فعل شيء.
– بص لي يا «حاتم»..
نظرت لها دون أن أنطق، أكملت وهي تمسك بيدى بقوة:
– .. إنت خايف منّي؟!.. قلقان إني مافهمكش؟!
– أنا خايف عليكي يا «ليليان»..
– من إيه؟! ماتقوليش إنك مش فاهم أو حاسس باللي جوايا ناحيتك من أول يوم، أنا مابحسش بالأمان غير وأنا جنبك، أنا بعدت عن كل الناس واكتفيت بيك، لو قلقان من حاجة قولهالي.. أنا مستعدة أبطّل أي حاجة هتضايقك.. أرجوك فهّمني.
هززت رأسي وأنا لا أدري ما أقول....ترددت قليلًا قبل أن أجيبها:
– «ليليان».. أنا ما اخترتش أكون كده.. فيه حاجات ساعات ما بنقدرش نعبّر عنها.. أنا مش عايز أستغل مشاعرك وكفاية اللي حصل.. ومش عايز أبقى واقف في طريقك.. وفي النهاية ماقدرش أعملك اللي إنتي عاوزاه.. صدّقيني لو قربتي مني أكتر ممكن تشوفي إنسان تاني غير اللي إنتي شايفاه دلوقت.. مش عارف هتفهميني ولا لأ.. بس هي دي الحقيقة ببساطة.. أنا عمري ما حسيت باللي حسيته ولا باحسّه

وأنا معاكي طول الوقت، بس لحد إمتى هافضل عامل نفسي مش واخد بالي ومتجاهل نتيجة ده.. أنا مش عايز أكون أناني ولا عايزك تكرهيني في يوم من الأيام.. أنا مش باهرب من اللي حصل ولو طلبتي أي حاجة هاعملها.. بس لازم أبقى واضح معاكي.

– إنت مش أناني.. وأنا عمري ما هاعرف أكرهك.. ومش هاطلب منك تعمل حاجة إنت مش مقتنع بيها يا «حاتم».. حاول إنت تفهمني.

– أفهم إيه يا «ليليان»؟! أفهم إنك عايزة تفضلي تعرفي واحد لا هو فاهم نفسه، ولا إنتي عارفة إيه آخرة حكايتك معاه؟!

– يعني عاوزني أعمل إيه؟! أقولك اتجوّزني فتِعمل كده لمجرد أنك ترضيني؟ تصليح غلطة يا «حاتم»؟! حاول تفهمني إنت.. افهم إني عايزة أكون جنبك.. مش عايزة حاجة تانية دلوقتى.. افهم إني محتاجالك أكتر ما إنت محتاجني.. افهم إني تعبت ومحتاجة أكون مع حد مش خايفة منه ولا قلقانة يوجعني.. افهم إني عايزة أشوفك بتحقق كل حاجة كنت بتحلم بيها.. انسى اللي حصل بيننا أرجوك.. ومش عايزة أعرف إيه اللي هيحصل قدام.. كل اللي طالباه منك ما تبعدش عنّي.. ولما تحس إن كل مخاوفك وقلقك انتهى.. ابقى ساعتها اعمل اللي يرضيني.

لم تكن تعلم أني لم أرغب للحظة في الابتعاد عنها، فقد كان ذلك كفيلًا بإعادتي إلى ذلك القبو المظلم الذي إن دخلته ثانية، فلن أخرج منه مرة أخرى على قيد الحياة.

– «حاتم».. ما تفضلش ساكت كده.

– حاضر يا «ليليان».. بس اعرفي إني باكرر اعتذاري عن اللي حصل..

وآسف.. بجد آسف لو كنت غصب عني مش قادر أفهمك اللي جوايا.
هزت رأسها وقد هدأ توترها بعض الشيء.
– مش مهم دلوقت توضحلي حاجة.. كفاية إنك تكون جنبي.. وكفاية إنك ما استغلتش اللي حصل زي أي حد ما كان ممكن يعمل.. رغم كل حاجة.. كلامك ده بيخليني أعرف إن إحساسي ناحيتك ماكانش غلط.. آدي كمان سبب يا أستاذ يخليني عايزة أبقى معاك.
هدأت مشاعري كثيرًا، نظرت في عينيها، انفرجت أساريرها وابتسمت تلك الابتسامة التي أعشقها.
تبادلنا نظرات تبوح بالكثير في صمت لبعض الوقت قبل أن تتظاهر بالانشغال في «المنيو» الموضوعة أمامها:
– ممكن بقى نغيّر الموضوع وتتفضّل تشوف هناكل إيه.. أنا تعبت من الكلام وجوعت.
هكذا طغى جمال روحها على كل شيء، فأنستني كثيرًا مما كنت أشعر به، تمنيت لو أنني قادر على فعل كل ما يرضيها دون تردّد، تمنيت أن آتي بالدنيا كلها لأضعها تحت قدميها في تلك اللحظة، أن أمحو حياتي السابقة بكل ما فيها، لكنني كنت أدرك تمامًا أنني لا أستطيع ذلك، ولا أستطيع أيضًا أن أبتعد عنها وأدير لها ظهري ببساطة متجاهلًا عواقب ذلك عليها، كأن الأمر لا يعنيني، لم يعد الوضع بهذه البساطة كما كان من قبل، لكنني أيضًا لم أكن قادرًا على جعلها تتفهّم ما كان يعترم بداخلي من صراع أبدي بدا لي أنه لن ينتهي أبدًا.

****

« ٥٥ »

عندما ذهبت لشقة «لي لي» بناءً على طلبها للاعتناء بـ «ميشا» كنت أشعر بالتوتر نوعًا ما.

كانت المرة الأولى التي أقوم فيها بذلك الأمر، دخلت إلى الشقة فهاجمتني عاصفة من ذكريات تلك الليلة البعيدة، نحيتها جانبًا حتى أتمّ مهمتي التي أتيت من أجلها.

فعلت كل شيء كما أوصتني تمامًا، ولكن «ميشا» ظلت تشعر بالقلق والتوتر هي الأخرى، كانت قد كبرت قليلًا وأصبحت قادرة على إصدار تلك الأصوات التي بدت لي عدوانية بعض الشيء عندما رأتني.

أشعر أحيانًا أن القطط تنظر للبشر بغضب غير مفهوم على الدوام، ربما تتمنى في داخلها لو كانت أضخم قليلًا، وأكثر قوة حتى تتمكّن من التهامنا بسهولة وإشباع جوعها دون الحاجة لعطفنا عليها.

ابتسمت وأنا أراقبها وهي تتناول طعامها الذي وضعته لها دون أن يكون ذلك كافيًا لتشعر تجاهي بالإطمئنان، ظلت تراقبني كل لحظة حتى تتأكّد أنني لا أمثل مصدرًا للخطورة عليها، لم تتوقّف عن تحركاتها الفزعة كلما تحرّكت حولها، ابتعدت عنها وذهبت إلى الصالة لتدخين سيجارة تاركًا إيّاها كي تتناول طعامها في سلام.

عندما جلست في صالة الشقة، ذلك المكان الذي شهد اندلاع الشرارة الأولى لتلك الليلة الجامحة، استعدت كل ما أحسست به ليلتها، فلم يكن بمقدوري أن أتجرّد ببساطة من تلك الرغبات بشكل تام، عرفت في

تلك اللحظة أنني يجب أن أعتاد قتل هذه الرغبات في مهدها وإبعادها عن ذهني بشكل سريع، وبأقصى ما أستطيع من قوة، لم أكن أريد الخضوع لها بأي شكل من الأشكال، فلم تكن لحظة ضعف واحدة أخرى لتعني سوى أمر واحد، أن أضطر لاتخاذ قرار قد يتسبّب رغمًا عني في تدمير كل شيء تمامًا، لم يكن ينبغي أن ترى هي تلك الرغبات أو حتى تشعر بها، كانت رغبتي في الاعتناء بها والاحتفاظ بصداقتها ووجودها أقوى من أي شيء آخر، لم أكن أتمنى حقًا سوى سعادتها، ربما كان كل ما أستطيع فعله هو أن أتجرّد من كل شيء واهبًا إيّاها ذلك الوجود الذي تحتاجه، وأحتاجه أنا أيضًا.

لم أعد أتصوّر أن أبتعد عنها، وأنسى ما حدث كأنه لم يحدث، كانت قد أصبحت واقعًا في حياتي، بل كانت هي الأمر الأروع في هذه الحياة برمتها.

قبل انصرافي وضعت المزيد من الماء والطعام لـ« ميشا »، وكان من الواضح أنني سأضطر لزيارتها يوميًا، فقد أصبحت مسؤولًا عنها هي الأخرى، فلم أكن مستعدًا لأن يصيبها مكروه بسبب غيابي عنها أو إهمالي لأمرها.

في المرات التالية بدأت تعتاد وجودي بعض الشيء، وبدأت أحبها أنا أيضًا.

****

« ٥٦ »

كان استدعاء مدير القناة لي بعد الحلقة أمرًا غير معتاد بالنسبة إليَّ، اتخذت طريقي للذهاب إلى مكتب القناة الرئيسي في منطقة المهندسين بعد انتهاء الحلقة مباشرة، لم أكن أعرف ما الأمر الذي يريد التحدث معي بشأنه، ولم يساورني القلق حتى على غير عادتي قديمًا، أصبحت متمرّسًا على استقبال كل شيء بهدوء ولا مبالاة، فحتى لو كان ما سيحدث أمرا سيئًا، فلن يمنع قلقي حدوثه.

قمت بتشغيل الراديو على محطة أغاني أجنبية كانت تذيع حلقة عن الأغاني الأجنبية القديمة، تلك الأغنيات التي كانت الأحدث في أثناء دراستي الجامعية أصبحت قديمة!

رفعت الصوت عاليًا وأنا أتذكّر تلك الأيام الخوالي، التي نتمنّى انتهاءها سريعًا ونحن نحياها كي نمضي في حياتنا التي نظنّ أنها ستكون الأروع، وكلما تقدّمنا في الحياة ازدادت رغبتنا في إيقاف الزمن، والعودة ثانية إلى تلك الأيام الخالية التي تبدو دائمًا أجمل من حاضرنا.

يشغلني الأمر تمامًا عمّا أنا ذاهب إليه، أشعر بسعادة وحنين يدفعانني لرفع الصوت أكثر، أردّد الكلمات عاليًا كما اعتدت أن أفعل مع أصدقائى قديمًا، أحاول الحفاظ على النسبة المطلوبة من اليقظة لمجاراة السيارات المتسارعة على طريق المحور، ترتسم ابتسامة على وجهي وأنا أتذكّر أشخاصًا، وأحداثًا، ومغامرات عديدة شهدتها تلك الأيام البعيدة، أغوص أكثر وأكثر في بحر تلك الذكريات متشبّثًا بوجودها لأطول وقت ممكن.

****

« ٥٧ »

دخلت إلى مكتب مدير القناة ومالكها وأنا أفكّر في السبب الذي استدعاني من أجله، كان أحد رجال الأعمال الذين اتجهوا منذ سنوات عديدة لإنشاء وامتلاك عدة قنوات فضائية خاصة يستفيد منها في تسيير أعماله وفي إعطائه قوة وهالة إعلامية تُضفي عليه نوعًا مِن النجومية في مجال عمله، كما تكسبه العديد من العلاقات المفيدة بلا شك، وبالطبع لم يكن الأمر يخلو مِن مغازلة لرجال الدولة، وهو الأمر الذي كان يحتاجه كي يُثبت ولاءه للسلطة من أجل الحصول على مكاسب قد لا يحصل عليها آخرون.

كان رجلًا قد تخطى الستين عامًا من عمره، ولكنه ظلّ متشبثًا بأيام قد ولّت منذ زمن بعيد بصبغ شعره وشاربه بصبغة داكنة فجّة مما منحه مظهرًا بدا لي مثيرًا للشفقة أكثر من أي شيء آخر، وكان معروفًا عنه تعامله مع العاملين لديه بتعالٍ مما جعلني متحفزًا بشكل زائد لدى دخولي إلى مكتبه، لم أكن حقًّا أبالي، بل لعلّي تمنيتُ انتهاء عملي في تلك القناة كي أتخلّص مِن هذا العبء الثقيل الذي يُؤرّقني بين الحين والآخر.

قام بإنهاء مكالمة كان يُجريها على هاتفه المحمول ثم التفت لي راسمًا ابتسامة على وجهه بدت لي مفتعلة للغاية.

– إيه يا أستاذ «حاتم».. مزعّل أستاذ «سمير» منّك ليه؟!

لم أبادله الابتسام فقد كنت أمقت تلك المشاعر المفتعلة، قرّرت الدخول مباشرة في صلب الموضوع كما فعل هو.

– مزعله إزاي مش فاهم؟!

– بُص.. أنا عارف شغلك كويّس، وماحدش يقدر يتكلّم عليه، بس هو بيقول يعني إنك بتعامله بعنف شوية وساعات بتزعقله في «الإير بيس».

ابتسمت للمرة الأولى منذ قدومي.

– بزعقله! لأ الكلام ده ماحصلش على فكرة.. صحيح هو لحد دلوقتي ساعات ما بيعرفش يتعامل مع الكاميرا ومع التوجيهات اللي بديهاله، وده طبعًا بيظهر على الشاشة، لكن أنا باتعامل معاه زي ما باتعامل مع أي حد.. باعمل شغلي وباطلب منه يعمل شغله هو كمان.. مش أكتر.

كرر ابتسامته المفتعلة بشكل شعرت معه أنه بدأ يستفزني.

– معلش بقى.. إنت عارف الناس دي بيبقى عندهم إحساس بنفسهم شوية.. فَيَا سيدي تعالى إنت على نفسك حبَّة وادّيله برستيجه برضه.

– طب باقول لحضرتك إيه.. ما تخلّي أي مخرج غيري يمسكله البرنامج بتاعه، وأنا أمسك البرنامج التاني ونبقى ريحناه مني خالص.

رفع حاجبيه وتراجع إلى الوراء كأنه سيلقي بأمر شديد الأهمية، قبل أن يُشعل سيجارة وينفث دخانها ببطء في الهواء:

– والله أنا مش هخبّي عليك، الفترة اللي إنت كنت تعبان فيها، كل المخرجين اللي اشتغلوا معاه اشتكوا منه وتعبوا معاه، ماحدش عايز يمسك البرنامج بتاعه.

أدركت سبب تعامله معى بذلك الهدوء واللين دون أن يستفزّه أسلوبي.

– طيب متهيألي ده معناه ببساطة إن المشكلة مش فيّ.

– أنا ما قلتش إن عندك مشكلة.. أنا بس باقول نحاول ناخد الأمور بشكل أهدى، ومايبقاش فيه مشاكل أصلًا.

وعدته بمحاولة علاج الأمر ثم انصرفت بعد أن صافحته مُدركًا أنّ استمرار النقاش بيننا لن يصل بنا لأي نتيجة.

****

« ٥٨ »

لم تُسفر المقابلة عن شيء سوى أنني أدركت أن هذا الشخص المدعو « سمير » هو شخص حقير بامتياز، وأنني لم أخطئ يومًا في الحُكم عليه.
بعد مغادرتى لمكتب مدير القناة تحدّثت إلى سكرتيرته بشكل جانبي وأخبرتني أن « سمير » يحاول إقصائي من العمل في البرنامج منذ فترة طويلة، ورجتني بالطبع أن لا أخبر أحدًا بما أطلعتني عليه. يبدو أنّ أحدًا لا يحبّ ذلك اللعين.
استفزني ما سمعته منها، ولكنني وعدتها بإبقاء الأمر سرًا وشكرتها.
في اليوم التالي تعاملت معه بحدة متعمّدة، ما دام أنه افتعل الأمر فلأجعله أنا حقيقة.
لكلّ منا جانبه السيئ يا عزيزي، ولم يكن يجدر بك اتهامي بشيء لم أفعله، فليصبح الأمر واقعًا، ولن يكون أمامك سوى تكرار الشكوى التي قمت بها مسبقًا، ولن يُغيّر ذلك من الأمر شيئًا في نظر مَن ستشكو إليهم.
رغم شعورى بالانتصار عليه تلك المرة أيضًا فإنني لم أعد أملك تجاهه سوى ذلك الشعور بالاشمئزاز طوال الوقت، وتجاه نفسي أيضًا لاستمرارى في هذا العمل الكريه مع ذلك الوغد.
أصبح الوضع أسوأ من ذي قبل بكثير.. ببساطة لم يعد الأمر محتملًا.

****

« ٥٩ »

اعتدت تلك النوبات التي تصيب «لي لي» من وقت لآخر بسبب اشتياقها لابنتها وعدم تمكنها من رؤيتها، كثيرًا ما كانت تحاول إخفاء الأمر عني، ولكنني كنت أعرف ما بداخلها بمجرد رؤيتها أو سماع صوتها، وكنت أفعل كلّ ما في وسعي محاولًا إخراجها من تلك الحالة، لكنها كانت أكثر حزنًا من أي وقت مضى بعد عودتها من رحلتها الأخيرة.

اعتدت أيضًا تجاهل أحزاني عندما تكون هي في حاجة إليَّ، عادت من رحلتها الأخيرة قبل منتصف الليل بقليل، وكما تعوَّدنا اتصلت بي بمجرد وصولها إلى منزلها، وما إن سمعت صوتي حتى انخرطت في بكاء شديد دون أن تنطق بكلمة.

احترمت بكاءها بلحظات صمت إجبارية فرضتها عليَّ تلك الدموع التي بللت عيني، تمالكت نفسي بقدر الإمكان محاولًا تهدئتها دون جدوى.

تألمت تلك المرأة حتى أنضجها الألم فأعطاها مظهر امرأة عنيدة قوية لا تبالي بشيء، لكنها كانت أقل قوة وأكثر رقة وضعفًا مما تبدو عليه بكثير.

أصابني القلق من الحالة التي كانت عليها فقرّرت الذهاب لرؤيتها دون إبطاء.

لم تتمكّن من النزول فصعدت إلى شقتها غير مبالٍ بأي شيء، فقد كان

هناك ما يُقلقني بشدة.
استقبلتني وهي تحمل «ميشا»، وقد أرهق البكاء عينيْها.
عندما رأيتها اطمأننت إلى أنّ قلقي لم يكن في محله، كانت واعية تمامًا، ولكن حزنها وألمها كانا يفوقان كل ما رأيتها عليه من قبل.
رفضت تناول أي طعام متعللة بأنها تناولت طعامًا على الطائرة، لم تقبل سوى بكوب من العصير لم تكمل منتصفه وظلت واجمة طوال الوقت، لم تتمالك نفسها وارتمت في أحضاني باكية، شعرت بالعجز حيال ما تشعر به فلم يكن بمقدوري فعل شيء لمساعدتها.
ظللت معها حتى هدأت تمامًا واستكانت بين ذراعي، قبل أن يغلبها النوم نظرت في عيني ولم تقل سوى كلمة واحدة.
– حضنك.
حملتها كطفلة صغيرة ووضعتها في سريرها، اطمأننت لنومها، ثم انصرفت، وكنا قد اتفقنا بعد إلحاح مني على لقاء في اليوم التالي.

****

« ٦٠ »

لم أكن واثقًا عندما اصطحبتها في اليوم التالي إلى دار الأيتام إن كان الأمر سوف يتحسَّن أم أنه سيزداد سوءًا، اشتريت قبل لقائها تلك الأشياء التي جلبتها معها في المرة السابقة من أجل الأطفال.

كان ما راهنت عليه صحيحًا، فما إن أصبحت بينهم حتى تحوَّلت هي الأخرى لطفلة صغيرة تلهو وسطهم ومعهم بمنتهى البراءة.

كانت تحمل قلبًا يشعّ بالحب والعطاء عندما تتواجد وسط مَن يكونون في حاجة إليها، مهما كان ما تشعر هي به.

لمحتني وأنا أراقبها بصمت مبتسمًا وهي تلهو بين الأطفال، بينما تتعالى ضحكاتهم البريئة مِن حولها، كانت هي الملاك الذي ينشر بأجنحته السعادة أينما حلّ.

ابتسمت لي بدورها ابتسامة ذات مغزى وأرسلت قبلة في الهواء.

أصبحت أفهم عنها الكثير، وشعرتُ بسعادة بالغة عندما رأيت وجهها يضيء بالفرحة والمرح مجددًا، وقد غابت عنه تلك السحابة الحزينة التي خيمت عليه بالأمس.

****

« ٦١ »

استمرّ « سمير الجناوي » في محاولاته الدؤوبة لتعكير صفو كل شيء، لا أعرف لماذا يوجد ذلك النوع من البشر الذين لا همّ لهم سوى إفساد حياة مَن حولهم بتصرّفاتهم الصبيانية الرخيصة دون أي مُبرّر.

أصاب القلق والتوتر طاقم العمل بأكمله عندما لم يتبقَّ سوى ربع ساعة على موعد الهواء بينما لم يظهر هو بعدُ، شعرت بغضب شديد عندما أبلغني أحد معاونيه أنه وصل أخيرًا إلى بوابة مدينة الإنتاج الإعلامي، أدركتُ جيّدًا ما يُحاول فعله، وقرّرت إفساده مهما كلّفني الأمر.

قمت بحشد أطقم عمل المكياج والكوافير والملابس داخل البلاتوه، وطلبت منهم تجهيزه للظهور على الهواء خلال عشر دقائق، جلس هو في برود يُراجع الأوراق التي جهزها له مُعدّو البرنامج، بينما انهمك الباقون في تجهيزه ووضع لمسات سريعة تمنحه الحد الأدنى اللائق للظهور على الشاشة، بينما كان عُمّال الإضاءة يضعون لمساتهم الأخيرة لضبط كشّافات الإضاءة عليه في نفس الوقت.

تحوّل البلاتوه إلى خلية نحل يتحرك فيها الجميع بشكل محموم بينما وقفت أنا أنظر إليه في هدوء مخفياً ما يعتمر بداخلي تجاهه.

كان ما حققوه أشبه بمعجزة في عملنا، في الوقت المحدد لبدء الحلقة كان كل شيء جاهزاً.

٣ . . ٢ . . ١ . . . هوا.

أطلقتها وتركته يتلو مقدمته المملة المكررة بينما خرجت من غرفة

الكونترول لتوجيه الشكر لكل مَن عاونني على إفساد مخططه السخيف الذي أعدّه كي يضعني في موقف محرج أمام إدارة القناة.

انتصرت عليه للمرة الثالثة، ولكن مشاعر الكراهية تصاعدت بداخلي تجاهه بشكل غير مسبوق كما ازددت حنقًا على عملي معه أكثر من أي وقت مضى.

لم أكُن مِمن يستهويهم العمل في ذلك الجو المشحون بالمؤامرات والدسائس الخفية، فزت بالتحدي الذي بدأه وتركت الأمر لإدارة القناة بعد أن عرفوا بما حدث وشدّدت على عدم تكراره، لكنني أصبحت لا أطيق مجرد رؤيته.

بعد انتهاء الحلقة خرج مِن البلاتوه مزهوًّا بنفسه كعادته، وقف بين مُعدّيه الذين تحلّقوا حوله، بينما انهمك هو في استقبال مكالماته المعتادة والردّ عليها بصوت مرتفع ليظهر لنا إعجاب المتصلين بأدائه المذهل وموضوعاته الفذّة، التافهة في واقع الأمر.

انتشر العاملون بالبرنامج في المكان استعدادًا للبرنامج التالي، مررت به في أثناء انصرافي، هنّأته أنا الآخر على غير عادتي بابتسامة ساخرة على شفتي:

– الله ينوَّر يا أستاذ.

أكملت طريقي إلى الخارج دون أن أنتظر ردّه.

تلقيت الردّ مِن بعض الواقفين أمام مدخل استوديو القناة وهم يُدخنون سيجارة سريعة قبل استئناف عملهم.

ابتسموا لي ابتسامة واسعة بينما انتفض أحدهم واقفًا في أثناء مرورى بجواره هامسًا:

– الله ينوَّر عليك إنت يا أستاذ «حاتم».. ربنا يصبّرنا.

– يا رب.

بادلته الابتسام وأنا أربت على كتفه مستكملًا الطريق إلى السيارة، دون أن تنسيني مشاعر الانتصار ذلك الضيق الشديد الذي أصبح يزداد يومًا بعد الآخر بسبب ذلك العمل الذي لم أعد أطيقه، أدركت حينها أنني لن أستمرّ طويلًا وأن لحظة الانفجار قادمة لا محالة.

****

« ٦٢ »

ذهبت مباشرة إلى شقة «لي لي» لممارسة مهامي المعتادة في الاعتناء بـ«ميشا»، كبرت كثيرًا ولم تعد تلك القطة الوليدة الخائفة.
اعتادت وجودي بجوارها بعض الشيء رغم أنها أحيانًا كانت تعاود النظر إليّ بطريقة لا أفهمها، انتظرت حتى انتهت مِن الطعام كي أبقى معها لبعض الوقت، مستمتعًا ببقائي مع ذلك الكائن الذي تحبّه «لي لي» بشدة، هَدَأ توتري الذي أتيت به كثيرًا حتى كدت أنساه تمامًا.
ما الذي سيحدث لهذا العالم، لو اختفى منه كلّ هؤلاء الأوغاد، وبقي فقط مَن يمكنهم جعل العالم مكانًا أجمل، ومعهم تلك الكائنات البريئة التي لا تضمر حقدًا أو كراهية لأحد؟!
ربما يجب أن أختفي أنا عن هذا العالم كي تنتهي متاعبي.. ربما.

****

« ٦٣ »

عند عودتي للمنزل عاودني ذلك الشعور بالحنق والخواء، كان عقلي يعمل بلا توقف كآلة جهنمية تأبى أن تهدأ أو تستجيب لأي أمر منى، استخدمت كل أسلحتى لإجبارها على التوقف، ولكن الأمر ازداد سوءاً.
جلستُ في سكون الليل أستمع إلى موسيقى «باخ» الحالمة، ممارسًا طقوسي المعتادة، محاولًا إغراق نفسي في سحابات الدخان الكثيف لعلّ بعضًا منه يتسلل إلى رأسي فيُجبر تلك الآلة الشيطانية على التوقّف عن العمل.
تداعت الذكريات إلى عقلي بشكل مكثف فازددتُ حنقًا على نفسي بينما ألحّ عليَّ ذلك السؤال بشكل لم تجد معه أي محاولة للمقاومة أو الهرب.. وماذا بعد؟!
لم يعد استمراري في ذلك العمل ممكنًا بالنسبة إليَّ، تحوّل الأمر إلى عبء سخيف يستهلك حياتي يومًا بعد يوم.
حتى علاقتي بـ «ليليان» أصبحت ألوم نفسي عليها بشكل لم يحدث من قبل.
إلى متى يُمكنني أن أظلّ بجوارها دون أن يحدث ما يعكّر صفو تلك العلاقة فتنهدم ويُصيبنا ضرر لا يعلم مداه سوى الله؟!
استسلمت لكلّ شيء يحدث في حياتي دون أن أعرف حتى ما الذي يجب أن أفعله في تلك الحياة.
أدرك تمامًا أن ابتعادي عنها سوف يكون مُدمّرًا لكلّ منّا، ولكنني أدرك

أيضًا أن الاستمرار بذلك الشكل الحيادي سيكون ضرره أكبر عليها.
فكرت في الأمر آلاف المرات ولم أصل لأي نتيجة.
هل أصبحت عاجزًا عن تقبل فكرة الحب أم أنني ببساطة لا أستطيع تصوّر الحياة بيننا مع ذلك الفارق الزمني؟!
أشعر بالعجز التام عن شرح ما يحدث بداخلي لها، أعرف أنني لم أختَر تلك التجارب التي مررت بها، وإنما فرضتها على الحياة، دون أن أعرف السبب أو أدرك الحكمة مِن وراء ذلك.
تصبح الأمور أكثر ضبابية بمرور الوقت دون أن يبدو أنني قادر على الوصول لأي حل قريب أو بعيد.
أخشى عليها من ابتعادي، وأخشى أيضًا من ذلك الوجود الذي لا أعلم نهايته، وفي جميع الأحوال لن تبقى الأمور هكذا إلى الأبد.
ألم يكُن مِن الأفضل لي أن أبقى متواريًا داخل تلك الحياة القاتمة التي كنت أعيشها كي لا أتسبّب في إيلام تلك المرأة التي لم تمنحني سوى الحب والسعادة طوال الوقت؟!
في النهاية أقف أنا عاجزًا عن منحها أي شيء سوى ذلك الوجود الباهت في حياتها، والذي ربما يمنعها من العثور على شخص مناسب يمكنها قضاء باقي حياتها معه، شخص لا يحمل بداخله كلّ تلك المخاوف التي تطغى على إرادته في الحياة ذاتها.
تمنيت أن أصدم رأسي في الحائط بلا توقُّف حتى تخرج منه كل تلك الأفكار والذكريات، أو أن يتلو أحدهم عليَّ تعويذة سحرية يمحو بها كل ما يدور في داخل ذلك الرأس المشحون دائما بكل تلك الأمور.

لماذا أبدو عاجزًا عن اتخاذ أي قرار بشأن أي شيء؟!
لماذا كلّ تلك المعاناة يا الله؟
اللعنة على كل شيء في هذه الحياة التي لا تتوقّف عن منحنا المعاناة حتى في ما بدا أنه الخلاص مِن تلك المعاناة ذاتها.

****

« ٦٤ »

سيطرت على تلك الحالة بشكل أعاد إلى ذهني تلك الفترات السابقة على لقائي « ليليان » دون أن أستطيع فعل أي شيء، بل إنّ كلّ ما تمكّنت مِن فعله هو جعل الأمور أسوأ بكثير.

لم ترتكب هي أي خطأ، بل كنت أنا الذي أخطأت بذهابي للقائها دون أن أحاول التخلّي عما يعتمل بداخلي منذ عدة أيام.

ركبت السيارة بجواري وهي مُشرقة كالبدر، حاولت مداراة كل شيء، ولكنني لم أفلح.

ابتسمت ابتسامتها المعهودة وهي تنظر لي بحب لم يعد خافيًا عليَّ.

– وحشتني.. أوي.

تنهدت وأشحت بنظري بعيدًا دون أن أنطق.

– مالك يا « حاتم »؟

أجبتُها باقتضاب:

– مافيش.

استدارت ناحيتي بجسدها وهي تُدير وجهي ناحيتها متسائلة:

– مافيش إزاى! إنت حتى مش عاوز تردّ عليَّ.

نظرت لها وأنا أشعر أن « جان » قد تلبسني وأصبح هو المُسيطر على ما أقول.

– أرد عليكي أقولك إيه؟!

– قول اللي جواك.. قول إني وحشتك.

رددت بحدة:

– وبعدين؟! إحنا مش اتكلّمنا في الموضوع ده قبل كده؟!

– وبعدين إيه يا «حاتم».. فيه إيه؟! فهمني.

زادت حدتي مع شعوري بنفاد صبري.

– وبعد ما أرد عليكي وأقولك وحشتيني.. وآخرتها؟!

ترقرقت الدموع في عينيها:

– فيه إيه؟ فهمني أرجوك.. أنا عملت حاجة ضايقتك!

– إنتي ما عملتيش أي حاجة.. بس لحد إمتى هنفضل كده! لحد إمتى هفضل موجود في حياتك لمجرد إني أبقى موجود؟!

هزّت رأسها محاولة مداراة دمعة عنيدة أبت أن لا تخرج من عينها:

– إنت اللي عاوز كده.. إنت اللي مش عاوز أي حاجة بيننا غير كده.. أنا عاوزة أبقى معاك على طول وإنت اللي رافض.

– علشان ما ينفعش.

احتدت بشدة للمرة الأولى منذ عرفتها وهي تصرخ بغضب:

– ليه؟ ما ينفعش ليه؟ إيه اللي أنا باعمله بيضايقك أو ممكن يخلّيك خايف مني؟!

زادت حدتي وأنا أشعر أنني لا أملك ردًّا مقنعًا على ما تقوله:

– المشكلة مش فيكي إنتي خالص.. المشكلة فيّ أنا.. حاولي تفهمي بقى.

– لحد إمتى هتفضل تقولي كده من غير حتى ما تفهمني إيه هي المشكلة دي؟! إيه اللي ممكن يحصل لو اتجوِّزنا؟ إيه اللي هيحصل لو حاولنا؟!

– حاولنا! «ليليان» أنا ماعنديش فرصة للمحاولة والفشل تاني.. الإنسان اللي إنتي بتحبّيه ده مش فاهم حتى نفسه.. مش فاكر هو كان إيه، ولا عارف هو عايز يعمل إيه.. للمرة العاشرة باقولك إني ما اخترتش أكون كده.

– بس تقدر تختار تبقى غير كده.. تقدر تتخلّى عن خوفك مِن كل حاجة.. تقدر تحاول ولو مرة تحقق أي حاجة من كل اللي اتخلّيت عنه.. حتى لو فشلت أنا مش هتخلّى عنك، تقدر تدي فرصة لإننا نبقى مع بعض.. أنا ساعات باحسك خايف مني.. خايف تبين لي حبك اللي أنا عارفة إنه جواك وحاسة بيه.. لحد إمتى هتفضل خايف مِن كلّ حاجة؟!

– أنا مش خايف يا «ليليان».

– لأ خايف يا «حاتم»، خايف تحب.. خايف إني أتغيَّر.. خايف إني آذيك.. مع إنك عارف إني عمري ما هعمل كده.

زفرت بغضب وأنا أنفث دخان السيجارة التي أشعلتها محاولًا التغلب على توتري:

– أنا اللي هأذيكي لو كملنا مع بعض، هآذيكي لأني هبعدك عن كل حاجة بتحبيها.. عن حياتك وأصحابك.. هتواجهي نظرات الناس طول الوقت وإنتي مع واحد أكبر منك بكل السنين دي.. لحد إمتى هتقدري تعملي كده قبل ما ييجي الوقت وتلاقي نفسك ندمانة على قرارك ده؟! أنا مش هستحمل وجع تاني يا «ليليان».

هدأت نبرتها قليلًا وهي تُمسك بيدي محاولة تهدئتي دون جدوى:

– أنا بعدت عن كل حاجة.. مستعدة أسيب شغلي لو ده هيريَّحك..

مستعدة أعمل أي حاجة.
قاطعتها بحدّة:
– كلّ ده علشان إيه؟! علشان مين؟ علشان واحد ممكن بعد كام سنة تبصيله وتحسّي إنك ضيّعتي حياتك مع واحد بيعجِّز وإنتي لسه في عز شبابك؟ واحد مش عارف حتى هو هيقدر يديكي اللي إنتي محتاجاه ولا هيبقى مجرد عبء عليكي وعلى نفسه؟ افهميني بقى.
أشاحت بوجهها بعيدًا:
– قول إنك عاوز تبعد عني.. لو فيه واحدة تانية في حياتك قوللي ببساطة.. أرجوك.
– أنا لا عايز أبعد عنك، ولا برضه قادر أفضل كده على طول.. أنا خايف عليكي.
أطرقت في صمت لوهلة قبل أن تُلقي جملتها الأخيرة بنبرة يائسة:
– لو خايف عليّ ماتفكّرش تبعدني عنك.. أنا آسفة لو كان وجودي في حياتك تاعبك للدرجة دي.. بس أنا..
غلبتها دموعها ففتحت باب السيارة التي لم تتحرك مِن أمام منزلها وهرولت مبتعدة دون أن أحرّك ساكنًا.
أسندت رأسي إلى الوراء وأغمضت عيني وقد ازددت غضبًا من نفسي، فلم أفلح حتى في جعلها تدرك مدى حبي لها وخوفي عليها، بدوت غاضبًا دون أن تكون هي سببٍ في أي شيء.
أدركت أنني أفسدت الأمر بدلًا مِن إصلاحه، كرهت نفسي في تلك اللحظة، ظللت ساكنًا في مكاني لوقت طويل قبل أن أنصرف.
حاولت الاتصال بها فلم ترد، لم يكن يجب أن أراها وأنا في هذه الحالة

مِن التوتر والغضب.
انصرفتُ ونبضات قلبي تتسارَع بحدّة، والخوف ينتابني من ضياع الشيء الوحيد الجميل في حياتي، لم أحسن التصرف، ولم أنجح في إظهار حقيقة مشاعري.
لو أدرَكَتْ ما في داخلي مِن حبّ تجاهها، وخوف عليها لما غضبت مني.
تردّدت جُملتها في ذهني دون توقّف..
« لحد إمتى هتفضل خايف؟ »

****

« ٦٥ »

كانت تلك الليلة هي الأسوأ منذ التقيتها للمرة الأولى، سيطر عليَّ الشعور بأنني أصبحت سببًا في تعاسة مَن لم تمنحني سوى السعادة والحب.

ظلت جملتها تتردّد طويلًا في أذني دون توقّف.

لم أتوقّف عن محاولة الاتصال بها طوال الليل، ردّت عليَّ أخيرًا بصوت أرهقه البكاء مما زاد من غضبي وندمي عمّا فعلته.

– أنا آسف.

قلتها وأنا أتمنّى احتضانها في تلك اللحظة.

ردّت بصوت هادئ مرهق:

– أنا اللي آسفة.. لو كنت سبب في أي حاجة وحشة ليك..

– إنتي عمرك ما كنتي سبب في أي حاجة وحشة في حياتي يا «ليليان».. علشان خاطري سامحيني.

– أنا ما زعلتش منك أصلًا علشان أسامحَك.

قتلتني بغفرانها الذي لا ينتهي وقلبها الذي يرفض حتى أن يحمل لي ضغينة ما حتى لو كنت أستحقّها.

إزداد ندمي على ما اقترفته في حقّها، فها أنا قد أصبحت سببًا جديدًا في تعاستها بدلًا مِن أن أكون سببًا في سعادتها كما كانت هي بالنسبة إليّ.

لم أتمكّن من لقائها لأصلح ما أفسدته قبل سفرها، إذ إنها لم تمكث

سوى يومين، سافرت بعدهما بدلًا من زميلتها التي حلّت محلها في أثناء بقائها معي بعد تلك الحادثة البعيدة.

رغم كل شيء لم يفارقني القلق من انتهاء كل شيء في لحظة ما، فإلى متى كانت ستظلّ صامدة دون أن يكون للأمر نهاية محسومة؟!

قد تأتي تلك اللحظة التي أضطر فيها للاختيار ما بين بقائي معها مهما كان الثمن أو ابتعادي عنها، فلم أكن واثقًا يومًا مِن قدرتي على التغلب على تلك الجراح القديمة التي خلفت داخلي آثارًا لم أعُد قادرًا على محوها.

كنتُ أدرك جيّدًا ما أمُرّ به من اطمئنان لتلك العزلة التي أحكمت نصب شباكها حولي، حتى أصبحت هي ملاذي الدائم الذي أعرف أنّ أحدًا لم يكن ليصيبني بمكروه طالما التزمت بها.

كانت «ليليان» هي الضوء في حياتي دون شك، ولكن مَن قال إنني اعتدت الوجود في الضوء طوال الوقت، شيء ما في داخلي كان يرغمني على العودة مجددًا ولو لفترات أقل عن ذي قبل لذلك الظلام الحالك الذي تطمئن له نفسي في نهاية الأمر.

لم يفارقني ذلك الشعور بأن وجودنا معًا طوال الوقت سيعني نهاية مؤلمة لا أرغب فيها لي أو لها، فحتى لو كان وجودها في حياتي قد أصبح هو الشيء الوحيد الجيّد بها، فما الذي يُمثِّله وجودي أنا في حياتها! أخشى أن أخذلك يا «ليليان» ولا أعرف أيضًا ما الذي يجب أن أفعله.

لم يتوقَّف عجزي وحَيرتي أبدًا.

****

« ٦٦ »

بعد يومين مِن سفرها تلقيت طردًا منها، كان شيئًا لم أتوقّعه على الإطلاق.. أرسلت إليَّ دفتر مذكراتها، شرعت في قراءتها، ولم أتركها مِن يدي قبل الانتهاء منها تمامًا.

لم يختلف الجزء الأعظم مما قرأته عمّا حكته لي بنفسها في تلك الليلة البعيدة، كانت قد صارحتني بكل شيء في حياتها دون خجل أو مواربة، ولدهشتي كان الفصل الأخير من تلك المذكرات يحمل اسمي. سجَّلتْ فيه كلّ شيء عني منذ اللحظة الأولى التي عرفت بأمري من «شاهندة» عندما حكى لها «مازن» عنّي، وتصورها لشخصي، وتعلّقها بي قبل أن تراني، ثم لقاؤنا الأول الذي انتظرته طويلًا وما تلاه من أحداث لم يفُتها تسجيل أيّ منها.

لم تكن تدري وهي تكتب كلّ ذلك أنني سوف أقرأه يومًا ما، ولكن تلك الصفحات التي كانت تقطر حبًّا وعشقًا جعلتني أرى كل شيء بوضوح غير مسبوق.. لم أظنّ يومًا أنّ أحدًا يمكن أن يُحبّني بهذا الشكل، ولم أعتقد حتى أنني أستحقّ كل تلك المشاعر من امرأة بتلك الروعة والجمال والرقّة.

كانت بالفعل قد فعلت أشياءً لم أطلبها منها يومًا، ومنذ تلك الليلة التي قضيناها معًا خارج حدود الزمان والمكان قرّرت أن لا تعود ثانية لتعاطي أي نوع مِن المخدّرات مرة أخرى، لمجرّد أنّها قرّرت أن تُصبح شخصًا أفضل.. مِن أجلي.

مِن أجل مَن لم يستحق يومًا هذا الحب ولم يُدركه، رغم أنها لم تفهم يومًا سبب ما أفعله أو ما أمرّ به.

كانت ببساطة مُحقّة في كل كلمة قالتها عنّي في نقاشنا الأخير، فهي لم تخف عني أي شيء، ورغم ذلك ظلّ خوفي حائلًا بيننا كما كان مكبّلًا ومانعًا لي عن فعل أي شيء لتغيير تلك الحياة التي كنت أحياها بلا جدوى وبلا أي هدف، والتي حاولت هي بكلّ الطرق إخراجي منها إلى حياة أجمل، ودفعي نحو فعل ما كنت أطمح في فعله قديمًا، ورغم كل ذلك.. ظلت تُحبّني.

عندما وصلت إلى آخر الصفحات المكتوبة وجدت ورقة صغيرة لا تحمل سوى ثلاث كلمات لم أفهم معناها: Lost on you

****

« ٦٧ »

ها أنا أُفسد كلّ شيء في حياتي كما فعلت طوال الفترة الماضية، بقيت مستسلمًا لكلّ تلك المشاعر السلبية التي أحاطت بحياتي بأكملها طويلًا حتى كدت أخسر الشيء الوحيد المضيء فيها، لماذا أطلب منها أن ترى كل شيء كما أراه أنا ما دام أنها لا تُدرك الأسباب الحقيقية لأيّ مما أفعله في حياتي أو معها؟!

ظللت عاجزًا عن اتخاذ أي قرار لتغيير تلك الحياة، رغم كل المعاناة التي جلبتها لنفسي، ورغم يقيني بأنّ شيئًا ما يجب أن يتغيَّر.

لم تعد هناك وسيلة للتراجُع بعد كل ما حدث بيننا، فهل أستطيع حقًّا الحياة دونها؟!

هل يُمكنني ببساطة التخلّي عنها بعد كل ما فعلته وما قرأته؟!

كرهت عجزي وخوفي واستسلامي، كرهت نفسي تمامًا، فحتى تلك النوبة من الغضب لم يكن يجب أن تكون هي ضحيتها، ولا يمكن أن أطالبها بأن تظل بجواري لمجرد احتياجي إلى ذلك الوجود، أو لمجرد أنني أستمر في إقناع نفسي بأنها تحتاجني بجوارها، فلست ساذجًا كي أقتنع أنها سترضى بهذا الوضع إلى الأبد.

ألم تبِح لي بكل شيء دون خوف؟!

ألم تمنحني ثقتها كاملة قبل حتى أن تتأكد إن كنت أهلًا لتلك الثقة أم لا أستحقّها من الأساس؟!

ألم تفعل كل شيء وتضحي بكل شيء من أجل دفعي إلى الأمام، بينما

ظللت أنا متشبّثًا بأوهام ماضٍ أفسدت حاضري وجعلت مستقبلي مشوّشًا بلا ملامح؟!

ما هو الذنب الذي ارتكبته بحقي حتى أعاملها هكذا أو أطلب منها أن تظلّ سجينة بجوارى جرّاء ذنب لم تقترفه يداها؟!

كلّ ذنبها أنها أحبّتني، فعاقبتها على حبّها لي بسبب جريمة ارتكبتها غيرها في حقي.

لم يكن إرسال تلك المذكرات سوى محاولة أخيرة كي تجعلني أدرك حقيقة الأمر قبل فوات الأوان.

صحيح أنها غفرت لي ما فعلته، ولكنها ربما لا يمكنها الاستمرار في منحي صكوك الغفران تلك إلى الأبد.

لم يعد هناك سبب واحد مقنع بعد أن قرأت ما قرأته كي لا أبوح لها بكل شيء مررت به، لعلها تدرك أسباب تلك الظلمة والخوف اللذين يملآننى، ألم تفتح لي خزانة أسرارها على مصراعيها دون أن تخشى شيئًا، فلماذا أخشى أنا أن أثق بها؟!

في النهاية لم يكن ما حدث لي بيدي، ولم تكن الخطيئة التي ارتكبت بحقي بسبب شيء اقترفته.

لم تخجل هي من أن تمنحني كل شيء في حياتها، فلماذا أخجل أنا من الكشف لها عما حدث لي؟!

لماذا أتركها فريسة لأفكار وأوهام لن تعرف يومًا إن كانت حقيقية أم لا؟!

قررت أن أخبرها بكلّ شيء حتى لو لم تتفهم تمامًا ما يدور في داخلي أو تقتنع به، وليكن ما يكون.

سأخلع عباءة الكتمان التي اختفيت تحتها طويلًا، فلن يوجد مَن هو أجدر منها على تفهم ضعفي ومخاوفي، لم يحبني أحد مثلما فعلت، حتى وإن كنت أراني لا أستحق ذلك الحب.

غمرني ارتياح هائل بمجرد وصولي لهذا القرار، فلعل شيئًا ما يتغيّر إذا ما كشفت لمخلوق عن تلك الجراح التي أثخنتنى، بل لعلها تستطيع مداواتها، ولتنهدم تلك الأسوار الكئيبة التي مللت الاختباء وراءها.

لن يخجلني أن أكشف عن ضعفي وألمي أمام مَن لم تخجل من الكشف أمامي عن كل شيء في حياتها، فأنا لن أعرف في حياتي امرأة مثلها مرة أخرى.

****

« ٦٨ »

بحثت عن تلك الكلمات التي تركتها في النهاية، فوجدتها أغنية بنفس العنوان.

أدركت حينها ما أرادت أن تقوله لي، أخذت أستمع إلى الأغنية عشرات المرات دون توقّف، كانت كلمات الأغنية تعبّر عن خيبة أملها وحبّها العميق في نفس الوقت، تتساءل عن جدوى الحب الذي منحتني إيّاه، وعما إذا كانت فقدت كل شيء في حبها لي.

سكنتني الأغنية وصوت المغنية الممتلئ ألمًا وشجنًا، كما سكنت «ليليان» روحي كجنيّة عاشقة تأبى فراق جسد مَن عشقته.

آلمتني الكلمات وزادت من شعوري بالندم على ما فعلته، التقطت كل رسائلها التي أرادت إرسالها لي.

لم تفقدي شيئًا في حبي يا حبيبتي، ربما لم أستحقه من البداية، ولكنني لم أعرف قدر امرأة مثلما عرفت قدرك.

لم تأمل إلا في أن أحتضنها في أوقات ضعفها وألمها، وأن أخبرها بحبّي لها، وأن أكون لها.

تتردد كلمات الأغنية في عقلي دون توقف.

Just you could cut me loose

After everything I've lost on you

Is that lost on you

لن أتخلّى عنك أبدًا، ولن أجعلك تندمين للحظة واحدة، فلتغفري لي خذلاني لكِ.. ولتغفري لي ضعفي.

« ٦٩ »

قبل ذهابي إلى شقتها للاعتناء بـ»ميشا« مررت بأحد محلات الزهور القريبة مِن منزلها، قمتُ بشراء عدة باقات وزّعتها في جوانب صالة الشقة كي تراها فور عودتها كنوع من الاعتذار عمّا بدر منّي تجاهها، وضعتها في أماكن بارزة بعناية، ولم أنسَ وضع واحدة على سريرها بجوار بيجامتها التي ألقتها هناك.

كانت «ميشا» تلحق بي كأنها تتساءل عمّا أفعله، تداخلت خُطواتها مع خطواتي حتى كدت أسقط أرضًا بفعل حماقتها، دللتها كما لم أفعل من قبل، اطمأننت أنّ كل شيء على ما يرام.. قبل أن أغادر.

****

« ٧٠ »

لم يعد يفصلني سوى عدة ساعات عن لقائها الذي قررت أن يتم فور عودتها، كأنني سأراها للمرة الأولى، فقد كان ما قرّرته يجعلني أشعر أنني شخص مختلف إلى حد كبير، أتوق أن أتخفف بين يديها من كل أعبائي التي أرقتني كثيرًا، وكنت أعرف أنّ ذلك الأمر سوف يجعلها أكثر سعادة، على الأقل ستدرك أنني أثق فيها بنفس قدر ثقتها بي، وستتأكّد أنّ شيئًا في داخلي لم يعد خافيًا عليها، ليتني فعلت ذلك منذ البداية.

عدت مِن الجيم بعد جلسة تدريب عنيفة شعرت خلالها بطاقة هائلة لم أعهدها في نفسي طويلًا.

عبثت قليلًا بجهاز الريموت بحثًا عن أي قناة أتركها كي يبعث صوتها الحياة وسط ذلك السكون المحيط بي، لم أجد ما يُثير اهتمامي، فألقيتُ بالريموت على السرير دون أن أهتمّ بأي قناة تركت، مجرّد صوت يقطع الصمت حتى يمرّ الوقت.

استحممت سريعًا وخرجت لتحضير وجبة أتناولها قبل ذهابي، كانت مشاعر الإثارة والترقب التي أشعر بها قد زادت مِن جوعي بشكل ملحوظ، قبل أن أصل إلى المطبخ تسمّرت قدماي، وأصابني هلع لم يصبني مثله يومًا.

أسرعت إلى غرفة النوم كالمجنون، وقلبي ينبض بعنف وجنون، رفعت صوت التليفزيون، لم أُصدِّق ما كنت أراه أمامي، خارت قواي ولم تقوَ

قدماي على حملي وأنا أشاهد تلك المذيعة وهي تُعلن في خبر عاجل عن اختفاء الطائرة التي كانت «ليليان» على متنها في أثناء عودتها.
دارت بي الدنيا، وكاد قلبي يتوقّف تمامًا عن العمل، أصابني فزع قاتل، ألقيت بنفسي داخل السيارة، وذهبت إلى مطار القاهرة، لا بد أنّ هناك خطأ ما، لعلّ خللًا ما قد أصاب أجهزة الرادار، أعرف أن هناك خطأ ما.
لم أعرف كيف وصلت إلى هناك، فلم تتوقّف تلك الارتعاشة التي أصابت يدي وجسدي بأكمله طوال الطريق، وليتني لم أصل.
عندما اقتربت من صالة الوصول كان أهالي ركاب الطائرة يتدافعون في كل مكان، كانت أصوات البكاء والصراخ تملأ الأجواء من حولي، تأكّد خبر سقوط الطائرة في البحر بعد إقلاعها بلحظات.
مادت الأرض بي فلم أعد أسمع أو أرى شيئًا مما يحدث حولي، سرت هائمًا بينهم، كانت كلّ خلية في جسدي تصرخ وأنا ذاهل عمّا حولي، خرجت لأبتعد عن كلّ ذلك الضجيج، ولم أقوَ على الوصول للسيارة، جلست أرضًا وأنا في حالة انهيار تام، يرتعد جسدي بأكمله وتملأ الدموع عيني، لا أُصدّق ما يحدث، لا بد أنه كابوس ثقيل سوف ينتهي خلال لحظات، ما يحدث حولي ليس حقيقيًا.. مستحيل، أظلم الكون بأكمله، سقطت في بئر سحيقة لا قرار لها، استمرّ السقوط، ولم أصل إلى نهاية.

أفقت على صوت أحد رجال الأمن وهو يُساعدني على النهوض ويُواسيني بكلمات لم أسمع منها شيئًا، ذهبت بصعوبة بالغة إلى السيارة، جلست أبكي هناك، وأنا ألعن نفسي وألعن كل شيء.
لم أدرِ كم مِن الوقت مرّ عليَّ وأنا هناك، لم يكن هناك مكان يُمكن أن

أتواجد به في تلك اللحظة سوى مكان واحد.
ما إن شعرت بقدرتي على السيطرة على نفسي، حتى ذهبت إلى هناك دون تردّد.. إلى شقة «ليليان».

****

« ٧١ »

تمالكت نفسي بصعوبة هائلة وأنا أصعد إلى شقتها، كان الظلام حالكًا وكأنه يَتسرب مِن داخلي ليزحف على كل ما حولي، بكيت كطفل صغير فَقَدَ أمه في الخلاء فأصبح وحيدًا.

أخذت أدوّر في كل مكان، ألمس باكيًا كلّ الأشياء التي لمستها هي يومًا، دخلت إلى غرفتها وارتميت على سريرها، جاءت «ميشا» تتمسّح في ساقي وهي تموء، حملتها محتضنًا إيّاها وأنا أخبرها من بين دموعي بما حدث.

ظللت أنظر إلى صورتها الصغيرة الموضوعة بجوار سريرها وأنا أرفض تصديق أى مما يحدث حولى، لا أُصدِّق أنني لن أراها ثانية، لن أسمع صوتها أو أقترب منها، اختطفها القدر مني بعنف قاتل، في لحظات كنت أقرب فيها إلى تحقيق ما أرادته، ولكنه لم يُمهلني كي أفعل أي شيء، حتى تلك الزهور جاءت متأخّرة، متأخرة للغاية.

بقيت هكذا دون حراك لعدة ساعات قبل أن أقوم معتزمًا فعل ما قررته دون إبطاء، فلم يعد لوجودي هنا معنى، وإن تمنيت أن لا أغادر أبدًا.

وضعت «ميشا» في قفصها، بحثت في دولاب «ليليان» عن علبة مجوهراتها، وضعتها مع بيجامتها التي كانت آخر ما ارتدته في حقيبة بلاستيكية، ومعهم صورتها، أخذت كل شيء ثم ألقيت نظرة أخيرة على المكان.

انصرفت مع ساعات الصباح الأولى وأنا أتمنّى أن أفيق من ذلك الكابوس اللعين أو أن ألحق بها فورًا.

« ٧٢ »

لم تتوقف اتصالات « مازن » طوال الطريق، لم أقوَ على الردّ عليه، عدت إلى المنزل والألم يكاد يفتك بي، أَلَمٌ تضاءلت أمامه كلّ تلك الآلام التي عرفتها يومًا، لم يعُد يوجد في تلك الحياة ما يستحقّ البقاء أو العناء من أجله.

رَحَلَت مَن كانت النور في حياتي، عدت بقسوة إلى الظلمة الحالكة، بينما الندم والمرارة يعتصران قلبي وروحي بلا هوادة.

رحماك يا الله فلم أعُد أحتمل المزيد من أي شيء.

أخذت أصلّي بجسد مرتعش وقلب تصرخ نبضاته بالقهر والحزن داعيًا لها حتى انخرطت ثانية في بكاء هيستيري لم أعرف مثله في حياتي من قبل، انهرت تمامًا، وغرقت في دوّامة حزن وندم قاتلة.

انتهت الرغبة في الحياة، فأي حياة يمكن أن أعيشها الآن بعد أن ذهبت مَن أدركت بعد فوات الأوان أنها كانت هي الحياة.

مرّ اليوم بطوله وأنا راقد في تلك الحالة البائسة، ولم ينتزعني منها في اليوم التالي سوى ما قررت فعله.. من أجلها هي أيضًا.

****

« ٧٣ »

في اليوم التالي خرجت من المنزل وأنا أكاد لا أرى شيئًا، ذهبت لفعل ما قرّرته، ذهبت لبيع كل ما كان موجودًا في علبة مجوهراتها، أخذت النقود وقمت بوضع معظمها في حساب يذهب عائده شهريًا إلى دار الأيتام التي كانت ترعاها، ووضعت باقي المبلغ في عدة حسابات لبعض الجهات الخيرية.

فعلت ما رأيته صوابًا من أجلها بغضّ النظر عن أي شيء.

عندما أجبت اتصال «مازن» أخيرًا بعد إلحاح منه، أخبرني بصوت حزين لم أسمعه منه منذ عرفته بانهيار «شاهندة» التام منذ عرفت بما حدث، طلبت منه أن يخبرها بما فعلت وأن يبقى بجوارها.

لم أكن قادرًا على مواساتها بنفسي، فلم أكن في حالٍ يسمح لي بأن أكون عونًا لأحد في ذلك الوقت.

في طريق عودتي هزمتني دموعي مجددًا فتوقفت على طريق المحور، إزداد الألم بداخلي حتى تخطى حدود السيطرة، تعالى صراخي عاليًا.. عاليًا بلا نهاية، حتى بح صوتي تمامًا.

كانت السيارات تمرق بجواري مسرعة كطلقات الرصاص دون أن يدري أحد ممن فيها أنهم يمرّون بجوار شخص يكاد يقتله الحزن، يملأ الكون بصراخه..دون أن يسمعه أحد.

****

« ٧٤ »

لم يكُن يوجد ما أرغبه في هذا العالم أكثر من وحدتي، فقد كانت هي ما أحتاجه الآن كي أشعر أنها لا تزال معي.

وهبتني «ليليان» حياتها دون أن تدري بلحظة اختارت فيها البقاء بجواري، كان حبها هو أثمن هدية تلقيتها يومًا، هدية كان ثمنها حياة.

حُبّ فقدته في هذه الحياة، ولكنني لن أفقده من داخلي ما حييت حتى تلتقي روحانا في يوم ما، عندها ستزول كلّ تلك العوائق والحواجز التي كبلتني ومنعتني من الحياة معها، عندها سيكون حبنا حقًّا.. إلى الأبد.

حُسم الأمر بالنسبة إليّ، الوفاء لحبّ ضحّت صاحبته بحياتها مِن أجله، هكذا كان الأمر ببساطة دون احتياج إلى شرحه لأحد أو إقناع مخلوق به.

أيّ خزي سيُصيبني لو خذلتها الآن؟!

سأتقبّل عذاب قلبي ووحدته بصدر رحب حتى النهاية، لعلّ الله يغفر لنا ويجمع بين قلبيْنا في حياة أخرى، سيتفهّم دون شك ما لا يفهمه البشر، بل لعلّه قد منحها مسبقًا مِن الآلام ما يجعلها تستحقّ رحمته، نعم، أعرف أنه سيكون رحيمًا بنا، ولو من أجل حبّ سكن قلوب أخلصت لحبّها حتى النهاية أملًا في لقاء أبدي لا يعرف الحدود أو الفوارق، ولا تقتله نهايات.

لم يكن ما اعتزمته ضربًا مِن الجنون، فالجنون هو أن أخذل مَن أحبتني

بهذه الطريقة، سيبقى كل شيء في داخلي كالعادة دون أن يطلع عليه أحد، فأحدٌ لن يُدرك أو يفهم ما أشعر به يومًا، يخضع كلّ شيءٍ لحسابات المادة لدى البشر، ولكن لي حسابات أخرى، لست مختلًا ولو ظنّ العالم أنني كذلك.. فليبقَ كلّ شيء في الخفاء بعيدًا عن أعين الجميع حتى النهاية.

يكاد القلب يتمزَّق، ولكنني سأحتمل كما احتملت دائمًا، يمتحننا الله بتلك الآلام، ولكنه لا يفعل ذلك هباءً، فلتكن «ليليان» هي ما أرجوه ولو في حياة أخرى يا الله، وسأحتمل كل شيء في سبيل ذلك.

أقسم لك إنني لن أخذلك يومًا، ولن أكون لغيرك يا مليكتي.

يا مَن أنرتِ ذلك الظلام الدامس فجعلتِني أرى النور مجدّدًا.

بل كنتِ أنتِ النور ذاته.

أقسم أن أنتظر لقاءنا حتى آخر نَفَس يخرج من صدري، وحتى يحين ذلك الوقت، فلن أفعل إلا ما تمنيت أن أفعله دومًا، من أجلك أنتِ.... وليشهد الكون على وعدي لكِ.

لن يكون عزائي عن فراقك إلا بانتظاري للقاءٍ أعلم أنه سيأتي يومًا ما.

فلتكوني أنتِ أنشودة العشق التي أنشدها سرًّا في حياتي إلى أن يحين الوقت فأنشدها بين ذراعيْك..... إلى الأبد.

****

« ٧٥ »

اعتذرتُ عن العمل لفترة، فلم أكن قادرًا على فعل أي شيء أو رؤية أي أحد، مكتفيًا بالصلاة والدعاء لها ومناجاتها طالبًا غفرانها.

توقفت الحياة تمامًا، حتى كرهت تمامًا ما كنت أفعله مِن قبل.

زارني « مازن » وأصابه الذهول مِن الحالة التي رآني عليها، كنت في حالة يُرثى لها، ولم تفلح زيارته في تغيير الأمر.

غادرني والدموع في عينيْه بعد أن أدرك عجزه التام عن فعل أي شيء حيال ما كنت أمر به.

لم تكن عودتي للحياة سهلة بأي شكل من الأشكال.

كنت أشعر بوجودها حولي وبجواري في كل وقت، بقيت على هذه الحال لفترة لا أذكرها.

كان الله رحيمًا بي فأعطاني بعضًا مِن السّكينة والصبر، كما منحني مسبقًا القدرة على إخفاء أي قدر من الآلام في داخلي دون أن يتمكن أحد من معرفة ما بي.. مهما كان.

لم أكن قد تناولت طعامًا طوال عدة أيام، مكتفيًا بتناول بعض العصائر والماء فقط حتى كدت أسقط مغشيًا عليَّ، ولم تكن هناك فائدة من الاستمرار على هذه الحال، فليس هذا ما أرادتني « ليليان » أن أفعله.

عندما أخبرني « محمد » كما اعتاد أن يفعل عن موضوع الحلقة التي سيُقدِّمها « سمير » في البرنامج، قرّرت قطع إجازتي والعودة إلى العمل.

****

« ٧٦ »

عندما ذهبت إلى العمل في ذلك اليوم كنت أعرف أن «سمير» سيتحدّث في الحلقة عن حادث الطائرة المنكوبة، لم أشعر بالارتياح لذلك، وما إن بدأت الحلقة حتى تحققت مخاوفي.

لم يهتمّ كثيرًا بمشاعر أهالي الضحايا ومصابهم في ذويهم، لم يُدرك ما يشعر به أي منهم، اكتفى بكلمات عزاء باردة قبل أن يحول دفّة الحديث إلى النقطة التي يريدها هو ويقصدها.

كان كلّ هدفه هو الهجوم على الدولة التي أقلعت منها الطائرة قبل سقوطها متهمًا إيّاها بالاشتراك في تلك المؤامرة الكونية المزعومة التي يحيكها العالم – من وجهة نظره– ضد مصر لتشويه سمعتها، والقضاء على السياحة، وضرب الاقتصاد – المنهار أساسًا – في مقتل.

رغم أن الطائرة لم تكن تابعة إلى شركة مصرية من الأساس، لكنه لم يتوانَ عن نشر سمومه إرضاءً لأهل السّلطة، ممن يظنّ أن كلماته تلك تسعدهم وترفع مِن شأنه في نظرهم.

– طلّعني فاصل.

قلتها بحزم وصرامة متجاهلًا ارتباكه إذ إن ذلك الفاصل لم يكن قد حان موعده بعدُ.

وَضَعَ اللعين يده على «الإير بيس» الموضوعة في أذنه، واستمرّ في الحديث متجاهلًا ما قلتُه.

صرخت فيه هذه المرة بحدّة أذهلت كل الموجودين حولي:

– فاصل.
اضطرّ للانصياع بينما أخذ الجميع في «الكونترول روم» ينظرون لي في ذهول، وهم يتساءلون عمّا يحدث.
– انزلوا بالبريك اللي جاي، «محمد».. إنت اللي هتكمّل الحلقة.
قلتها وأنا أخرج من غرفة الكونترول مندفعًا كثور هائج إلى داخل البلاتوه إذ يجلس الملعون وسط الأضواء والكاميرات.
كان الغضب باديًا على وجهي، ولم يدرك أحد ما يحدث، ولكنّ أحدًا لم يقف في طريقي، فلم يروننني في هذه الحالة من قبل.
رأيت ملامح الدهشة على وجهه وهو يراني أقترب منه كإعصار قاتل مستعد للإطاحة بكل ما يقف أمامه.
وقفت في مواجهته وأنا أنظر في عينيه بغضب هائل، تسمّر في مكانه دون أن يتحرّك، كنت أتمنّى القضاء عليه تمامًا في تلك اللحظة، أمسكت بتلابيبه واقتربت من وجهه غاضبًا.
– أنا ما شفتش في حياتي إنسان أوسخ ولا أقذر منك.. إنت مش بني آدم.. إنت مجرد حيوان....
لم يهمّني أن الجميع يسمع ما أقوله سواء في البلاتوه أو في «الكونترول»، فقد كانت الميكروفونات مفتوحة.
كنت أشعر تجاهه باشمئزاز يفوق الوصف، ظلّ ينظر إليّ في ذهول وهو لا يُدرك أي شيء مما يحدث، أخذته المفاجأة تمامًا فلم ينطق حتى وصلت إلى باب البلاتوه في طريقي إلى الخارج، عندها بدأ بصراخ لم أسمع منه كلمة واحدة، فقد اندفعت إلى الخارج لا ألوي على شيء، لم أنظر لأحد أو أتحدّث إلى أي شخص.

قبل أن أصل إلى السيارة اتصل بي مدير البرامج في القناة مستفسرًا عن هذا الارتباك الذي حدث في الحلقة، لم أردّ سوى بكلمتين:

– أنا مستقيل.

أغلقت بعدها الهاتف وانصرفت إلى منزلي مباشرة.

فعلت أخيرًا ما كان يجب أن أفعله منذ زمن طويل، وكانت «ليليان» هي السبب.

مررت في طريقي للمنزل بماكينة «ATM» مستطلعًا حسابي البنكي، كان ما به من نقود يكفي بالكاد لمدة شهرين أو أقل، لم أهتمّ فقد حسمت أمري ولن أتراجع مهما كانت العواقب.

سأبيع السيارة لو تطلب الأمر، ولكنني لن أعود مجددًا إلى هذا العمل مهما حدث، لن أفعل ثانية ما لست مقتنعًا بفعله، وليكن ما يكون، يكفيني ما أهدرته من سنوات.

****

« ٧٧ »

رأيتها في تلك الليلة في الحُلم للمرة الأولى منذ رحيلها، كانت ابتسامتها مشرقة كما كانت دائمًا، ملأت الحُلم بهجة وسعادة، تمنيت أن لا أستيقظ أبدًا فأظلّ معها في أرض الأحلام بلا عودة، مدت يدها لتوقظني ولامست يدي، استيقظت وأنا أشعر بلمستها الدافئة كأنها حقيقة لا تقبل الشك، لم أكن واهمًا، هل يمكن أن تكون الأحلام أحيانًا وسيلة لاستقبال رسائل من العالم الآخر؟!

كان إحساس يدها الدافئة على يدي حقيقيًّا للغاية، إحساس جلست لبعض الوقت كي أحتفظ به في مكان أمين من ذاكرتي، كي لا أفقده أبدًا.

****

« ٧٨ »

مرت الأيام التالية ببطء وهدوء شديدين، رغم كل ما كنت أمرّ به، إلا أنني لم أعُد أهرب إلى النوم كما كنت أفعل من قبل، أصبحت أستيقظ مبكرًا كي أستحضر وجودها حولي في كل وقت، فلو كنت أملك أن أراها في أحلامي يوميًّا لما استيقظت إطلاقًا.

كانت يقظتي هي الوسيلة الوحيدة كي أراها أمامي وأُفكِّر فيها طوال الوقت، كنت أسترجع لحظاتنا معًا في كل لحظة، لم تعد صورتها تفارق خيالي، ولم أتوقّف عن سماع تلك الأغنية التي أرسلتها لي دون أن تُدرك أنها ستكون رسالتها الأخيرة لي، لم أتوقّف كذلك يومًا عن الصلاة والدعاء من أجلها.

تلازمني «ميشا» أينما ذهبت في المنزل فأستأنس بها وبذكرى ذلك اليوم الذي أنقذتها «ليليان» فيه من مصير مجهول، كأنها كانت تنيبني لأكمل ما بدأته هي.. دون أن تعلم.

بقي شيء واحد كان يجب أن أتغلّب عليه من أجلها، رغم التردد الذي ملأني فإنه كان يجب أن أواصل ما كانت تفعله حتى النهاية.

كان يجب أن أذهب لرؤية الأطفال الذين أحبّتهم وأحبّوها دون أن تكون هي معي للمرة الأولى، مقاومًا دموعي التي كادت تخونني وهم يسألونني عنها، أخبرتهم أنها سافرت، وشددت على مُشرفي الدار بعدم إخبارهم بأي شيء، كنت أتخيّلها بيننا تداعبهم وتملأ المكان بمرحها كما اعتادت.

واصلتُ ما كانت تفعله كما كانت تفعله تمامًا.
حاولت منحهم البهجة التي اعتادت هي منحهم إيّاها، أخذت أقرأ لهم تلك القصص فتحلقوا حولي يستمعون لي في دهشة وترقّب، تقمّصت شخصيات القصص كما رأيتها تفعل دومًا.
ألم تكن تفعل كل ذلك متغلّبة على كل ما في داخلها مِن آلام وأحزان؟! أكملت دورها بقدر استطاعتي، بذلت جهدًا خارقًا مغالبًا دموعي وأنا أغادرهم عندما سألوني عمّا إذا كانت ستأتي معي في المرة التالية أم لا. لم أتمكّن من الصمود طويلًا عندما احتضنتني تلك الفتاة الصغيرة التي تعلقت بي منذ رأتني أول مرة، ودعتني وهي تحتضنني بقوة، فانهمرت دموعي، أسرعت في المغادرة قبل أن يلحظوا شيئًا ما.

****

« ٧٩ »

اكتفيت بمحاولة البقاء على قيد الحياة لفترة طويلة دون أن يتغيّر أي شيء في الحياة على الإطلاق، حتى جاء ذلك اليوم الذي تغيّر فيه كل شيء.

حاولت طويلًا استكمال ذلك السيناريو الذي بدأته منذ سنوات طويلة ساعيًا لتحقيق شيء مما أرادت هي دفعي لتحقيقه، فلم أفلح.

استيقظت مبكرًا في ذلك اليوم كما أصبحت أفعل، ألقيت التحية على صورتها الموضوعة بجواري، ذهبت إلى الجيم لبعض الوقت في محاولة للعودة إلى ما كنت عليه بعد أن فقدت الكثير من وزني.

ذهبت بعدها لزيارة الأطفال مصطحبًا « ميشا » معي فسعدوا بها للغاية، ولم يكفّوا عن سؤالي عن « ليليان ».

عدت إلى المنزل،استرحت قليلًا ثم ذهبت للسير في الطريق الذي سرنا فيه معًا يومًا ما كما اعتدت أن أفعل مؤخرًا.

في نفس التوقيت الذي اصطحبتني فيه، وفي نفس الطريق أخذت أسير مستمعًا مرارًا وتَكرارًا إلى تلك الأغنية التي أرسلتها دون كلل، كنت أسترجع كل ذكرياتي معها، وكانت الشمس تميل نحو الغروب، بدأت السماء تصطبغ بألوان سحرية غامضة، توقّفت فجأة عن السّير، لم أتزحزح من مكاني للحظات، أسرعت بعدها للعودة إلى المنزل.

عندما دخلت إلى الشقة لفت انتباهي تلك المنضدة الموجودة في الصالة وتلك الأشياء الموجودة عليها، والتي كنت أستخدمها في ممارسة طقوس

الهروب الليلي وقد اعتلاها الغبار، كنت قد توقّفت عن تدخين الحشيش والسجائر تمامًا منذ تلك الليلة المشؤومة الحزينة، ولم يعد هناك أي داعٍ لوجودها عندي.

جمعت كلّ الأشياء في حقيبة بلاستيكية وألقيت بها في القمامة.

أحضرت الأوراق القديمة وشرعت في قراءتها بعناية منذ البداية، قرّرت تأجيل إعادة كتابتها إلى وقت آخر.

قمتُ مِن مكاني وذهبت إلى حيث ألقيت تلك الحقيبة البلاستيكية، استخرجت علبة السجائر منها، وأفرغت باقي محتويات الحقيبة في القمامة.

أشعلت سيجارة وأخذت أنفث دخانها بهدوء حتى أنهيتها تمامًا.

نحيت تلك الأوراق المكتوبة جانبًا، وعلى الصفحة البيضاء الأولى وفي المنتصف تمامًا كتبت بخط عريض:

إلى «ليـــلـــيـــان»

في الصفحة التالية بدأت الكتابة وكأنّ مَسًّا أصابني فجأة.

مشهد ١ ليل/داخلي/خارجي

فوتومونتاج الحلم

يجلس رجل أربعيني إلى طاولة وأمامه تجلس امرأة ثلاثينية حسناء فاتنة الملامح في مكان غير واضح المعالم، يتعالى صوت الموسيقى في المكان، بينما يتحرّك حولهم أشخاص لا تتضح ملامحهم.....

****

« ٨٠ »

أفقتُ قليلًا وقد استعاد عقلي ذلك الشريط الذي لم أتوقّف يومًا عن استرجاع كل تفاصيله لأجد «ليلى» بجواري، ابتسمت لها فهرولت إلى دامعة العينين، أمسكت بيدي وقبّلتها، بللتها بدموعها الدافئة.
أردت طمأنتها:

– ما تعيَّطيش.
نظرت إليّ بحنو وهي تبكي.
– ما تقلقيش، وما ترجعيش لجوزك وإنتي معيَّطة كده.
ردت وهي تغالب دموعها.
– ربنا اللي يعلم هو كمان قلقان عليك أد إيه، حضرتك عارف هو بيحبك إزاي.
– عارف يا بت، جوزك راجل وجدع.. خلّي بالك منه.
– «حاتم» و «ليليان» كانوا شبطانين ييجوا معايا، بس أنا عارفة إنه مش هينفع، سبتهم معاه، ربنا يقوّمك بالسلامة ويخليك لينا يا رب.
– سلميلي عليهم وبوسيهوملي كتير.

لم تكن تعرف أن دعوتها تتنافى تمامًا مع ما أرغب فيه.
ربت على يدها مطمئنًا إيّاها، بعد لحظات اضطرت للانصراف بناءً على أوامر الطبيب على وعد بالحضور في اليوم التالي.

رأيت كل مَن أحببتهم بعد أن سمح الأطباء بالزيارة مؤخرًا، وكنت أريد أن تكون «ليلى» آخر من أراهم، تلك الفتاة التي حملتها يومًا وهي صغيرة، وتمنّت برغبة طفولية ساذجة أن تتزوّجني، لم أبتعد عنها يومًا، ولم تنسَ هي أبدًا ما فعلته، أسمت أبناءها باسمي واسم حبيبتى التى كانت سببًا فى معرفتي بها، وكنت أريدها هي أيضًا أن تراها وتطمئن عليها.

سنوات طويلة مرّت كأنها الدهر بأكمله، لم أنسها يومًا، ولم تتخلّ هي عني أو تبتعد، كانت شاهدة على كل ما حققته، فعلت كلّ ما أرادت منّي أن أفعله يومًا ما، عشت أيامًا يملؤها المجد والنجاح، ورغم ذلك لم يشغلني شيء عنها وعن انتظار لقائنا المنشود.

انفردنا وحدنا أخيرًا، لم يكن وجودها مجرد طيف أستحضره في خيالي، أو ذكرى اعتاد عقلي استدعاءها طوال الوقت للحفاظ عليها حية في داخلي.

كانت بجواري بالفعل هذه المرة تبتسم ابتسامتها الساحرة، يملأ عطرها أنفي ويحيط بي فيملأ روحي بالطمأنينة.

كانت أجمل مما اعتدت أن أراها دائمًا، اقتربت مني وأمسكت بيدي.

أبت أخيرًا أن تغادر وحدها هذه المرة.. فقد غادرنا معًا.....

إلى الأبد.

****

تمت

« شكر خاص »

إيمان الغزالى
رهف جمال الدين
أيمن فكرى

Special thanks to
Sofia Arechabala

«ليليان»

وعد الخلود

للمؤلف

هانى محى

«ليليان»
وعد الخلود

ZERO ONE PICTURES
Production solutions that make sense.

زيرو وان بيكتشيرز للتوزيع – أحمد فخري – مدينة نصر – القاهرة
تليفون : 01090288777

E.mail: Zeroonepictures@outlook.com
Zeronepictures.com
website: www.zeronepictures.com

© جميعُ الحقوق محفوظة، وأى اقتباس أو إعادة طبع أو نشر فى أى صورة كانت ورقية أو الكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابى من الناشر؛ يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.